التقنيات الحجاجية في شعر الدفاع عن الدعوة الإسلامية عند شعراء الرسول.

The Argumentative Techniques in the Poetry of Defending Islam when the Poets of Prophet.

إعداد

أ.إسراء محمد أحمد بخيت

باحثة ماجستير- كلية التربية – جامعة مطروح

مجلة الدراسات التربوية والانسانية . كلية التربية . جامعة دمنهور

المجلد الرابع عشر - العدد الثانى - لسنة ٢٠٢٢

التقنيات الحجاجية في شعر الدفاع عن الدعوة الإسلامية عند شعراء الرسول.

أ.إسراء محمد أحمد بخيت

الملخص:

نظـرًا للأهميـة الكبيـرة لنظريـة الحجـاج فـي اسـتقراء تراثنـا العربـي - باعتبارهـا مـدخلًا هامًـا لدراسة النصـوص الأدبيـة ذات الطـابع الإقنـاعي التـي يهدف أصـحابها إلـى التأثير فـي المتلقي واسـتمالته للإقـرار بـرأي أو فكـرة معينـة - ارتأينـا الاتجـاه بالبحـث فـي تقنيـات تطبيـق النظريـة الحجاجية في شعر الدفاع عن الدعوة الإسلامية عند شعراء الرسول.

فـي محاولـة منـا لرصـد سُبل وكيفيات إقنـاع المتلقي، والبحـث فـي مكامن الطاقـة الحجاجيـة، فضـلًا عن الوقوف على الحجج التـي قدمها شعراؤنا، والحيل التـي استعانوا بها من أجل إفحام الخصم ودحض آرائه، الدفاع عن الدعوة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الحجاج - الإقناع - تقنيات - شعراء الرسول.

The Argumentative Techniques in the Poetry of Defending Islam

when the Poets of Prophet.

Abstract:

Due to extremely importance of the argumentation theory in extrapolation of our Arab heritage, as an important introduction to the study of literary texts of a persuasive nature, whose authors aim to influence the recipient, and persuade him to acknowledge a certain opinion or idea, so we choose to search in the techniques in the poetry of defending Islam when the poets of prophet.

In an attempt from us to monitor the methods of persuading the recipient and researching the sources of the argumentative energy, and stand on the arguments presented by our poets and the tricks they used in order to defeat the enemy and defending Islam.

Key words: Argument – persuasion- Techniques- the Poets of Prophet.

المقدمة:

يشهد العصر الذي نعيشه صراعًا فكريًا كبيرًا، واختلافًا كبيرًا في الآراء والأفكار والاتجاهات، وهذا الاختلاف سنة الله في خلقه، كقوله تعالى :{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}[١] فلم نجد غير الحوار والنقاش سبيلًا لإقامة الحُجة والبرهان.

فلا جدال في أننا نعيش عصر التواصل والحجاج، في عالم قائم على أصناف الحجج والدعاوي، بحث أصبحت الحُجة عصب الحياة في مجال الدعاية والإشهار والتعليم والسياسة والقضاء.....، واللائحة طويلة تصل إلى تواصل العامة، فالتواصل الإنساني جملة قائم على الحجة؛ فلا تواصل من غير حجاج.[٢]

ولقد أبدى الباحثون اهتماما بالغًا بموضوع الحجاج ودوره في العملية التخاطبية، وتبنوا الكثير من المفاهيم التي تكشف عن الخلفية المعرفية التي اعتمد عليها كل باحث، فتوزعت تلك المفاهيم بين البلاغية واللغوية والمنطقية،[٣]

واستطاع الحجاج أن يضرب بجذورٍ قوية في الخطاب العربي فضلًا عن الدور الهام الذي لعبه الحجاج في الحياة العقدية والسياسة في البيئة العربية،[٤] فمثلًا في عهد النبي (ﷺ) زاد تداول الخطاب ، وذلك لملائمته طبيعة الدعوة الإسلامية ؛ حيث تناولت موضوعات جديدة كالدعوة إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، وهذا من طبيعته يحتاج إلى أسلوب في الدعوة يتسم بالحكمة والحجج القوية .[٥]

---

١ - [الروم: ٢٢]

٢ - انظر: عبد النبي ذاكر، " الحجاج: مفهومه و مجالاته"، (مجلة فصول، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد ٢، مجلد ٤٠، اكتوبر - ديسمبر ، ٢٠١١)٧.

٣ - انظر: محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، (الدار البيضاء :دار الناشر للثقافة، ط١، ٢٠٠٥)٦.

٤ - محمد العبد ، النص والخطاب والاتصال، (القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، د.ط، ٢٠١٤)، ١٥٠.

٥ - طارق محمد، " الحجاج في خطب الحجاج : خطبته في أهل العراق" رسالة ماجستير منشورة (جامعة النيلين، كلية الدراسات العليا، ٢٠١٩)٢٩.

فبدأت ضد الدين الجديد معركة أدبية ضارية اشترك فيها من صفوف الكفر عدد كبير من الشعراء أمثال: عبدالله بن الزبعري، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، وأبو سفيان بن الحارث، و أبو عزة الجمحي. فالمعركة بين الإسلام والكفر لم تعد معركة حربية فقط، ولم يعد السيف وحده قادرًا على القيام بدور الهجوم والتحدي، فوقف إلى جانبه الشعر سلاح العرب القوي.[٦]

فقال الرسول للأنصار: " ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء [٧] ، وكان حسان شاعر الرسول الأول و وانتدب معه لهجو المشركين كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، وكان عبدالله بن رواحه يعيرهم بالكفر وعبادة مالا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، كان حسان وكعب بن مالك يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر ويذكران مثالبهم ، فكان قول عبدالله بن رواحة يؤمئذ أهون عليهم ، وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم، فلما أسلموا وفقهوا كان أشد القول عليهم قول عبدالله بن رواحة .[٨]

ومن هنا اتجهت هذه الورقة البحثية برصد تقنيات الحجاج في شعر الدفاع عن الدعوة الإسلامية ويتمثل ذلك في شعر : حسان بن ثابت ، و كعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحه .

أولًا- مفهوم الحجاج لغةً واصطلاحًا:

الحجاج لغةً:

"والحُجَّة: البُرْهان؛ وَقِيلَ: الحُجَّة مَا دُفِعَ بِهِ الْخَصْمُ؛ وَقَالَ الأَزهري: الحُجَّة الْوَجْهُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الظَّفَرُ عِنْدَ الْخُصُومَة، وَهُوَ رَجُلٌ مِحْجاجٌ أَي جَدِلٌ. والتَّحاجُّ: التَّخاصُم؛ وَجَمْعُ الْحُجَّة: حُجَجٌ وحِجاجٌ. وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً: نَازَعَهُ الْحُجَّةَ. وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: غَلَبَهُ عَلَى حُجَّتِه، والحُجَّةُ : الدَّلِيلُ وَالْبُرْهَانُ. يُقَالُ: حاجَجْتُه فأَنا مُحاجٌّ وحَجِيجٌ، فَعِيل بِمَعْنَى فَاعِلٍ. وَمِنْهُ

---

[٦] - عبدالله بن رواحة،" الديوان دراسة وتحقيق: وليد قصاب" (الرياض: دار العلوم، ط١، ١٩٨١). ٧٨.

[٧] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي : العصر الإسلامي ، (القاهرة : دار المعارف، ط٧، ١٩٦٣) ٤٧.

[٨] - عبدالرحمن البرقوقي، "شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري" (المكتبة التجارية الكبرى: مصر، د.ط، ١٩٢٩)م-م.

حَدِيثُ مُعَاوِيَةَ : فَجَعَلْتُ أُحِجُّ خَصْمِي أَي أَغْلِبُه بالحُجَّة. وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً ، فَهُوَ مَحْجوجٌ وحَجِيج ."[٩]

وجاء في مختار الصحاح: "و (الْحُجَّةُ) الْبُرْهَانُ و (حَاجَّهُ فَحَجَّهُ) مِنْ بَابِ رَدَّ أَيْ غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ، وَفِي الْمَثَلِ لَجَّ فَحَجَّ فَهُوَ رَجُلٌ (مِحْجَاجٌ) بِالْكَسْرِ أَيْ جَدِلٌ وَ (التَّحَاجُّ) التَّخَاصُمُ"[١٠]

وبهذا يكون الحجاج دائرًا حول التخاصم والتنازع و الغلبة بالحجج والجدل، فنجد الحجاج مرادفًا للجدل، كما جاء في القاموس المحيط : " المِحْجاجُ: الجَدِلُ "[١١]

وفي اللغة الفرنسية، نجد لفظة "Argumentation" تشير إلى عدة معاني، أبرزها - حسب قاموس "روبير" – ما يلي:

- القيام باستعمال الحجة.
- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة.
- فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة.

وفي القاموس ذاته نجد " Argumenter " تشير إلى الدفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حجج، أو عرض وجهة نظر معارضة مصحوبة بحجج.[١٢]

وبهذا نجد أن المعنى اللغوي للحجاج في اللغة الفرنسية لا يختلف كثيرًا عما عرفناه في لغتنا العربية، فكلاهما يأخذ المنحى نفسه، الدائر حول فلك الحوار المنبي على إقامة الحُجة والجدل.

الحجاج اصطلاحًا:

---

[٩] - محمد بن مكرم، ابن منظور، " لسان العرب" (بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٩٠)ج٢. ٢٢٨.

[١٠] - أبو بكر الرازي،" مختار الصحاح" تحقيق: يوسف الشيخ محمد(بيروت: المكتبة العصرية- الدار النموذجية، ط٥، ١٩٩٩)٦٦.

[١١] - انظر: مجد الدين محمد، الفيروز أبادي،" القاموس المحيط " تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة إشراف محمد نعيم العرقوسي،(بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٨، ٢٠٠٥)١٨٣.

[١٢] - انظر: حبيب أعراب،" الحجاج و الاستدلال الحجاجي: عناصر استقصاء نظري"،(عالم الفكر، عدد ١، مجلد ٣٠، يوليو – سبتمبر، ٢٠٠١)٩٩.

عرَّف التهانوي الُحجة في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم بأنها: " الُحجة بالضم مرادف للدليل، والحجة الإلزامية هي المركبة من المقدمات المسلمة عند الخصم المقصود منها إلزام الخصم وإسكاته وهي شائعة في الكتب . والقول بعدم إفادتها الإلزام لعدم صدقها في نفس الأمر قول بلا دليل لا يُعبأ به".[١٣]

وجاء في المعجم الفلسفي تعريف للُحجة بأنها: "ما يراد به إثبات أمر أو نقضه، وهي أنواع مباشرة وغير مباشرة، منها: المحاجة: ويراد بها طريقة تقديم الحجج والإفادة منها ، أو الحجاج الذي يقوم على جمع الحجج لإثبات رأي أو إبطاله.... إلخ ."[١٤]

وتقترب هذه الدلالة كثيرًا مع ما جاء في موسوعة " لالاند " الفلسفية إذ تعرف الُحجة "Argument" بأنها "استدلال يرمي إلى برهان قضية أو دحضها، أما المحاججة " Argumentation " فهي سَرْد حجج تنزع كلها إلى الخلاصة ذاتها، وطريقة عرض الحجج وترتيبها."[١٥]

والحجاج عند "اندرسين Andersen " و " دوفر Dovre" طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوي المنطقية، وغرضها حل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات محكمة و التأثير في وجهات النظروالسلوك.[١٦]

أما الحجاج عند " بيرلمان Perelman " جملة من الأساليب التي تضطلع في الخطاب بوظيفة حمل المتلقي على الاقتناع بما يُطرح عليه، أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع، معتبرًا

---

١٣ - محمد علي التهانوي، "كشاف الاصطلاحات والفنون والعلوم" تحقيق: رفيق العجم وعلي دحروج(لبنان: مكتبة لبنان ناشرون،ط١ ، ج١،١٩٩٦).٢٢.

٤ - إبراهيم مدكور، "المعجم الفلسفي" (القاهرة: مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، د.ط، ١٩٨٣)٦٧.

١٥ - أندريه لالاند،" موسوعة لالاند الفلسفية"(بيروت: منشورات عويدات، المجلد الأول(A – G)،ط٢ ، ٢٠٠١)٩٣-٩٤.

١٦ - انظر: محمد العبد، "النص والخطاب والاتصال" ،١٤٦.

أن غاية الحجاج الإساسية هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيئه للقيام بالعمل.[١٧]

أما الحجاج عند " أزفالد ديكرو O.Ducrot" اختلف تمامًا عما كان عليه عند "بيرلمان Perelman" فالحجاج عند ديكرو " فهو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها. وكون اللغة لها وظيفة حجاجية يعني أن التسلسلات الخطابية محددة، لا بواسطه الوقائع المعبر عنها داخل الأقوال فقط، ولكنها محددة أيضًا بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها. [١٨]

أما مصطلح الحجاج في الثقافة العربية فنجد "عبدالله صولة " أكثر اعتدالًا ووسطية، فرأى أن تصور "بيرلمانPerelman " و "تيتيكاه tyteka " للحجاج جعل أفق الدرس الحجاجي في أي نص أفقًا ضيقًا، وفي المقابل وجد أن مفهوم "ديكرو" و " أوسكمبر" واسعًا جدًا ؛ لذلك اتخذ موقفًا وسطًا فليس كل حجاج عنده بفصل أو وصل، وليست اللغة بكل وحداتها المعجمية ذات طاقة حجاجية في ذاتها، فقد رأى أن طبيعة النص لها دور في إكساب لغته دورًا حجاجيًا.[١٩]

ويحدده طه عبد الرحمن بأنه فعالية تداولية جدلية؛ فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي؛ أي مرتبط بسياق الخطاب من معرفة بأحوال المتخاطبين ومقاصدهما، وهو جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البيانات البرهانية الضيقة.[٢٠] وعرفه في موضع آخر قائلًا : " الحجاج كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها". [٢١]

---

١٧ -انظر: سامية الدريدي، " الحجاج في الشعر العربي بنبته وأساليبه"(الأردن: عالم الكتب الحديث،ط٢ ، ٢٠١١)، ٢١.

١٨ -انظر: أبو بكر العزاوي، " اللغة والحجاج"(الدار البيضاء: دار العمدة، ط١، ٢٠٠٦)١٦-١٧.

١٩ -انظر: عبدالله صولة،" ألحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية" (بيروت: دار الفارابي، ط٢، ٢٠٠٧)٤٠.

٢٠ - انظر: طه عبدالرحمن،"في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" (الدار البيضاء ،المركز الثقافي العربي ، ط١، ٢٠٠٧)٦٥

٢١ - طه عبدالرحمن، "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي"(الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ، ط١، ١٩٩٨)٢٢٦.

وبهذا نجد أن ليس للحجاج تعريفٌ محددٌ أو مفهومٌ جامعٌ مانعٌ ، فالحجاج كان كالمادة الخام التي تهافتت عليها معظم العلوم وأخذت في تشكيلها بما يتلاءم مع منهجيتها، فأصل الحجاج كما هو ولكن تناول العلوم له بكيفيات ومنهجيات مختلفة، أكسب الحجاج صفة الاتساع والشمولية.

ثانيًا: التقنيات الحجاجية في شعر الدفاع عن الدعوة الإسلامية:

إن الأشكال الحجاجية les Schèmes argumentatifs التي يمكن اعتبارها مواضع حجاجية أو معاني حجاجية لها نوعان من الطرائق: طرائق الوصل أو الاتصال procédé de liaison، وطرائق الفصل أو الانفصال procédé de dissociation، فيوجد أشكال حجاجية اتصالية وأشكال حجاجية انفصالية، والمقصود بالطرائق الاتصالية procédé de liaisonالطرائق التي تُقرب بين العناصر المتباينة بدءًوفي الأصل، وتتيح فرصة لإقامة ضرب من التضامن بهدف هيكلتها أي إبرازها في هيكل أو بنية واضحة، أو لغاية تقويم أحد هذه العناصر بواسطة الآخر تقويمًا إيجابيًا أو سلبيًا، أما المقصود بالطرائق الانفصالية procédé de dissociation التقنيات المستخدمة بغرض إحداث القطيعة أو إفساد الصلة الموجودة بين عناصر تشكل عادة كلًا لا يتجزأ أو على الأقل كلًا متضامنة أجزاؤه في نطاق نظام فكري واحد، فوفق هذه الطرائق يحدث فصل داخل المفهوم الواحد.[٢٢]

١-١-الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية :

١-١-١-التناقض و عدم الاتفاق

والمقصود بالتناقض هو أن تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين إحداهما نفي للأخرى ونقض لها، في حين أن عدم الاتفاق أو التعارض بين ملفوظين يتمثل في وضع الملفوظين على محك الواقع و الظروف أو المقام لاختيار إحدى الأطروحتين وإقصاء الأخرى فهي

---

[٢٢]- انظر: حمادي صمود، *أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم* (المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية: تونس، د.ت، د.ط) ٣٢٤، على الشبعان، *الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل* (دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ٢٠١٠، ط١) ١٣٢، عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٤٠:٤١ .

خاطئة، وبهذا فالتناقض يحدث داخل النظام الواحد، أما التعارض فيحدث في علاقة الملافيظ بالمقام.[٢٣] ولكن " التناقض الصارخ من قبيل أبيض/ أسود نادر جدًا في الحجاج، فالخطاب الحجاجي قلما يلتجئ إلى الاستدلال بالخلف (Par l'absurde)، ولكنه يحتفل احتفالًا واضحًا بعدم الاتفاق (incompatibilité) إذ يدفع الحجاج أطروحة ما مبينًا أنها لا تتفق مع أخرى" [٢٤] ومثل هذه الحجج نجدها في شعر كعب بن مالك حين قال: {من المتقارب}

أَلاَ اْبلِغْ قُرَيْشاً على نَأيِها ... أتفخَرُ مِمَّا بما لَمْ تَنَلْ
فَخَرْتُم بِقَتْلَى أَصَابَتْهُمُ ... فَواضِلُ مِنْ نَعِمِ المُفضِلِ
فَطُّوا جِناناً وأبقُوا لَكُم ... أُسوداً تُحامي عَنِ الأَشْبُلِ
تُقَاتِلُ عَنْ دِينِهَا وَسْطَهَا ... نَبِيٌّ عَنِ الحقِّ لَمْ يَنْكُلِ [٢٥]

فقد اعتمد كعب بن مالك حجة التناقض / عدم الاتفاق، فجاء عدم الاتفاق بين حال المشركين في فخرهم بما حققوا في غزوة أُحد و نيلهم من المسلمين بقتل عدد كبير منهم، والنعيم الملحق بهولاء القتلى، وما ينتظرهم من نعيم دائم، ففي المشهد الأول، نجد مشركي قريش يفخرون بقتلى المسلمين والفخر في العدو يأتي من إلحاق الضرر المادي والمعنوي بالطرف الآخر، فالمتوقع في المشهد الثاني أن يأتي بما يثبت حسرة المسلمين وتوجعهم لفقدانهم فرسانهم، وإلحاق الضرر الكامل بهم، ولكن جاء غير المتوقع فمن أين تأتي الحسرة والتوجع والضرر، وهؤلاء القتلي لم يصبهم سهم الموت وإنما أصابهم سهم النعيم، فهم في جنات ربهم منعمين، فيأتي عدم الاتفاق بشكل جلي بين فخر المشركين الذي يكون بهبوط مكانة المسلمين والنيل منهم بقتل العديد منهم ، وبين عدم توافر دواعي هذا الفخر، فنفي كعب حدوث أي ضررسواء بشكل كامل أو جزئي، فقتلى المسلمين فهم في مكان المرتقى، في

[٢٣] - انظر : حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ٣٢٥.

[٢٤] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ١٩٢.

[٢٥] - كعب بن مالك،" الديوان دراسة وتحقيق: سامي مكي العناني(بغداد: مكتبة النهضة، ط١، ١٩٦٦)، ٢٥٤.

جنات ربهم منعمون، وأما ما بقى من فرسان فهم أُسود تحمي وتدافع عن دينها بقيادة قائدهم الأعظم رسول(ﷺ) الله ، فمن أين يأتي الفخر إذن ؟!

١-١-٢ - التماثل و الحد في الحجاج

وهذا صنف آخر من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية، في الأساس على مبدأ التشابه والتماثل ، " إذ يعمد المحتج لفكرة أو مبدأ إلى التعريف و ضبط الحدود: تعريف المفاهيم أو الأشياء أو الأحداث والوقائع ولكن ما يقدمه من تعريفات لا ينتمي البتة إلى نظام شكلي بل تدعي قيامها بدور الضبط والتحديد رغم افتقارها إلى الدقة والوضوح" [٢٦]

فالتماثل هنا لا يعني تمام المطابقة بين المعرَّف والمعرِّف،" فالتماثل التام مداره على التعريف Définition من حيث هو تعبير عن التماثل بين المعرَّف Le definiens و المعرِّف Le definien dum وليس المعرِّف تمام المعرَّف على الحقيقة لهذا سمي الحجاج من هذا القبيل حجاجًا شبه منطقي " [٢٧] وعليه ، " فصيغة التماثل ليست إلا طريقة شكلية نتوخاها في تقويم شيء ما تقويمًا إيجابيًا أو سلبيًا بواسطة الحشو Le pléonasme" [٢٨]

ومن أمثلة هذه الُحجة قول حسان بن ثابت : {من المتقارب}

أَبوكَ أَبوكَ وَأَنتَ اِبنُهُ فَبِئسَ البُنيُّ وَبِئسَ الأَبُ [٢٩]

اعتمد الشاعر في هجائه للمعادين للإسلام على حجة التماثل في قوله: أبوك أبوك، ولا يقدم هذا التماثل أي ضبط لموضوع التعريف، بل يقذف المتلقي في متاهة الغموض، يبحث عن ترابط منطقي يجمع حدي التعريف هذين، وفي قوله: وأنت ابنه، يتابع الشاعر مسيرته الحجاجية بتقديم حقيقة بديهية جديدة، خلاصتها أن المهجو هو ابن أبيه، لتصب هذه الُحجة في خانة سابقتها، وتقوي معناها، فيفهم من السياق العام للبيت ما يبتغيه حسان من هذا التعريف عبر قوله: فَبِئسَ البُنيُّ وَبِئسَ الأَبُ، وهذا هجاء محض يشمل الأب والابن، ويقضي

---

[٢٦] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٠٠.

[٢٧] - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٤٤.

[٢٨] - المرجع السابق، ٤٥.

[٢٩] - حسان بن ثابت،" الديوان دراسة وتحقيق: عبدأ مهنا (لبنان: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٤)، ٤٢.

بتشابههما واستحقاقهما الهجاء نفسه، ليبدو المعني النهائي مكتمل الملامح(أبوك أبوك)،أي: أبوك، وهو معروف، وأنت ابن له، فأنت مثله ونسخة منه، وترث عنه صفاته وقيمه، ومن ثم فبئس القيمة والنسب.[٣٠]

١-١-٣ - الحجة القائمة على العلاقة التبادلية

وهذا النوع من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية " يتمثل في معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة وهو ما يعني أن تينك الوضعيتين متماثلتان وإن بطريقة غير مباشرة، وتماثلهما ضروري لتطبيق قاعدة العدل La règle de justice، وقاعدة العدل هي تلك القاعدة التي تقتضي معاملة واحدة لكائنات أو وضعيات داخلة في مقولة واحدة " [٣١] وعلاقة المبادلة أو التبادل " هي علاقة منطقية خالصة غير أن الحجة تظل شبه منطقية فحسب لأنها إسناد للحكم ذاته إلى أمرين ندعي أنهما متماثلان والحال أننا لو أخضعناهما إلى الدراسة الدقيقة لانتهينا إلى فروق عديدة بينهما" [٣٢] وهذا ما أكده ليونال بلنجي فذهب إلى أن " الحجاج عن طريق العلاقة التبادلية التي تقوم عليها حجج شبه منطقية عديدة يصبح ممكنًا بشرط تناسي كل ما يفرق بين الأوضاع وتعديلها بشكل تغدو معه متطابقة " [٣٣]

وقاعدة العدل نجدها جلية في قول كعب بن مالك : {من الوافر}

قَضَيْنا مِنْ تِهامَةَ كُلَّ رَيْبٍ وخَيبَرَ ثمَّ أَجْمَمْنا السُّيوفا

نُخَبِّرُها وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قواطِعُهُنَّ دوساً أو ثَقيفَا

قَعَدْتُ لِحاضِنٍ أَنْ لَمْ تُرُوها بِسَاحَةِ دارِكُمْ مِنّا أُلُوفَا

---

[٣٠] - انظر: جمال فضل فرحان، "الحجاج في شعر حسان بن ثابت مقاربة تداولية " (العراق: المجلات الأكاديمية العراقية، عدد١١، مجلد٣٨، ٢٠١٩)، ٨: ١٠.

[٣١] - حمادي صمود، *أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم*، ٣٢٨.

[٣٢] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٠١.

[٣٣] -Lionel Bellenger, L'argumentatiom: principes et methods (1984)

نقلًا عن : سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٠١.

وَتَنْتَزِعُ العُروشَ بِبَطْنِ وجٍّ وتصبحُ دُورُكم منكُم خَلُوفَا[٣٤]

فتعامل كعب بن مالك مع ثقيف ودوس على أنهما فرقٌ من المشركين، ولهما نفس الموقف العدائي للإسلام، فهما في وضعيتين متماثلتين،فما طُبق على ثقيف سيطبق بالضرورة على قبيلة دوس تحقيقاً لقاعدة العدل ،فقد هزم الرسول (ﷺ) قبيلة ثقيف في غزوة حنين، وتتبعهم جيش المسلمين وحاصرهم في حصن الطائف، فقذف الله في قلوبهم الرعب، واستطاع الرسول (ﷺ) كسر شوكتهم،إلى أن أعلنت قبيلة ثقيف إسلامها، فهذه الهزيمة جعلت جميع القبائل الأخري تترقب في حذر مصيرها وذلك بعد سقوط أهم القبائل وأقواها .. فما أن قال كعب هذه الأبيات مهدداً قبيلة دوس أنها سوف تلاقي مصير قبيلة ثقيف، فقد ماثل كعب ضمنياً بين قبيلة ثقيف ودوس، فاستهدف بذلك معنويات قبيلة دوس، فأسلمت فرقاً من دوس مخافة أن يحل بها ما حل بثقيف، " فقالت دوس: انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف".[٣٥]

١-٢ – الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية

١-٢-١- حجة التعدية

ويعتمد هذا النوع من الحجج على العلاقات الرياضية " فالتعدية خاصية شكلية تتصف بها ضروب من العلاقات التي تتيح لنا أن نمر من إثبات أن العلاقة الموجودة بين أ و ب من ناحية و ب و ج من ناحية أخرى هي علاقة واحدة إلى استنتاج أن العلاقة نفسها موجودة بين أ و ج" .[٣٦]

ونجد مثل ذلك عن حسان بن ثابت في هجائه لابن الزبعري : {من الوافر}

أَلا إِنَّ لِدِّعاءَ بَني قُصَيٍّ عَلى مَن لا يُناسِبُهُم حَرامُ

فَإِنَّكَ وَادِّعاءَ بَني قُصَيٍّ لَكَالمُجري وَلَيسَ لَهُ لُجامُ

---

[٣٤] - كعب بن مالك، الديوان، ٢٣٤.

[٣٥] - ابن عبد البر،" الاستيعاب في معرفة الأصحاب "، تحقيق على محمد البجاوي(بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩٢)،ج٣، ١٣٢٥.

[٣٦] - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٤٦.

فَلا تَفخَر فَإِنَّ بَني قُصَيٍّ هُمُ الرَأسُ المُقَدَّمُ وَالسَنامُ
وَأَهلُ الصيتِ وَالسَوراتِ قِدماً مُقَدَّمُها إِذا نُسِبَ الكِرامُ
هُمُ أَعطَوا مَنازِلَها قُرَيشاً بِمَكَّةَ وَهيَ لَيسَ لَها نِظامُ
فَقُل لِبَني قُفومٍ لَستَ مِنهُم فَإِنَّ قَبيلَكَ الهُجُنُ اللِئامُ (٣٧)

فجوهر هذه الحُجة هو العلاقة الرياضية التالية:

أ × ب

ب × ج

أ × ج

فبتطبيق هذه المعادلة الرياضية على قول حسان حصلنا على التالي:

أ = أَلا إِنَّ لِدَّعاءَ بَني قُصَيٍّ عَلى مَن لا يُناسِبُهُم حَرامُ

ب = فَإِنَّكَ وَادِّعاءَ بَني قُصَيٍّ كَالمُجري وَلَيسَ لَهُ لُجامُ

جـ = فَلا تَفخَر فَقُل لِبَني قُفومٍ لَستَ مِنهُم إِنَّ قَبيلَكَ الهُجُنُ اللِئامُ

وهي كما نرى قد بُنيت على حُجة التعدية فحسان وضع قاعدة كلية كبرى (أ) : مفادها أن من يدعى انتماءه لبني قصى وهو ليس منهم بالشيء المحرم المنكر، ثم أسس حسان لقاعدة صغري (ب): وهي أن ادعاء ابن الزبعري نسبه لبني قصي كالفرس المجري الذي لا لجام له، فذلك فعلٌ طائش لا أساس ولا رابط له، (ج) : فنتيجة لذلك الادعاء المفترى الطائش، يأمرحسان ابن الزبعري بعدم الفخر ببني قصي، فهو ليس منهم ولا يستحق أن يتوَّج بهذا الشرف، فهو ليس أصيل ونقي النسب وإنما نسبه هجين. فنخلص من ذلك بوجود علاقة بين (أ) و (ج) تأخذنا إلى أن لا يحق لهجين ومختلط النسب أن يدعي انتماءه لبني قصي، فهذا الادعاء بالأمر المحرم و الفعل الطائش الذي لا أساس ولا رابط له .

---

٣٧ - حسان بن ثابت،الديوان، ٢٣٨: ٢٣٩.

١-٢-٢- تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له

يقوم هذا النوع من الحجج على تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له، وما ينطبق على كل جزء من أجزائه المكونه له ينطبق بالضرورة على الكل، " ويبدو هذا الصنف من الحجج مقنعًا في ظاهره لصبغته الرياضية الواضحة، ولكنه في الحقيقة لا يعدو أن يكون شبه منطقي فحسب؛ لأن الأجزاء لا تعبر في كل الحالات وبدقة عن الكل" [٣٨]، وفي هذا السياق نجد ليونال بلنجي يؤكد على الفكرة ذاتها، فيذهب إلى أن قيمة الكل قد تكون بعيدة كل البعد على أن يمثلها مجموع الأجزاء، فيقول ممثلًا تلك العلاقة بقطعة أثاث ذات أدراج: " فقطعة الأثاث هذه يمكن أن تكون مغرية ولكنها تفتقر إلى أدراج جيدة كأن تكون غير كافية أو في غير مواضعها المناسبة، فقيمة الكل إذن بعيدة فعلًا عن أن يمثلها مجموع الأشياء" .[٣٩]

وظهر هذا النوع من الحجج في الشعر العربي القديم ، " والمتأمل في الشعر العربي القديم يتوصل بيسر إلى شيوع هذه الحجة في غرضي المدح والهجاء، لأن الشاعر متى أراد مدح قبيلة عمد إلى مدح بعض سادتها أو مدح فرسانها فيحكم لهم بالشجاعة أو الكرم أو العفة أي بفضيلة من فضائل العرب أو بجملة من تلك الفضائل، ثم يأتي ذلك الحكم فيعممه لينسحب على القبيلة كلها " [٤٠]. كذلك فعل عبدالله بن رواحة عندما قال : {من الطويل}

وَيَندُمَ قَومٌ لَم يُطيعوا مُحَمَّداً عَلى أَمرِهِم وَأَيُّ حينَ تَنَدُّمِ

أَبَلِغ أَبا سُفيانَ إِمّا لَقيتَهُ لَئِن أَنتَ لَم تُخلِص سُجوداً وَتُسلِمِ

فَأَبشِر بِخِزيٍ في الحَياةِ مُعَجَّلٍ وَسِربالِ قُرٍ خالِداً في جَهَنَّمِ [٤١]

---

[٣٨] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٠٧.

[٣٩] - Lionel Bellenger, L'argumentatiom: principes et methods (1984)

نقلًا عن : سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٠٧.

[٤٠] - المرجع السابق، ٢٠٨.

[٤١] - عبدالله بن رواحة، الديوان ، ١٣١.

فعبدالله بن رواحة وضع قاعدة كلية تأسست على أن من لم يتبع الرسول (ﷺ) ويمتثل لدعوته ويُسلم ويخلص في إيمانه بالله وبالرسول (ﷺ) فله خزيٌ في الحياة الدنيا، وموعده النار خالدًا فيها، وهذا تصديقٌ لقوله تعالي : { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ }[٤٢]، فهذان الخصمان هما المؤمنون والكافرون، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، فأوضح الله تعالى مصير من يكفر به،[٤٣] وهذا الحكم اعتمد عليه عبدالله بن رواحة في توجيه التحذير لأبي سفيان بن الحارث، وعبدالله بن رواحة هنا لا يطبق هذا الحكم على أبي سفيان فحسب، بل يريد به سائر الأقوام والدليل على ذلك إقرانه في البيت الأول عدم إطاعة الرسول بالندم، وعممه على سائر الأقوام فلم يخُص قومًا بعينه، ثم جاء في البيت التالي وخص أبا سفيان بن الحارث؛ لأنه لسان المشركين، وأشدهم كفرًا وعداوة للإسلام، واشتد هجاؤه للرسول ولصحابته بلسانه، فكان أبو سفيان بن الحارث بمثابة السيف الذي يستخدمه الأعداء في محاربة الرسول (ﷺ)، لذلك نجد عبدالله بن رواحة أتى بالحكم وطبقه على أبي سفيان؛ لينسحب على المشركين كلهم .

وحجة تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له يعتمد عليها برهان آخر، يسمى بالبرهان ذي الحدين، وهذا النوع من البرهان كما يعرفه "بيرلمانPerelman " شكل من أشكال الحجج يتناول فرضيتين ليستنتج قاعدة أخرى مفادها أنه سواء وقع الاختيار على الأولى أو الثانية نصل إلى الفكرة ذاتها أو الموقف نفسه؛ إما لأنهما تقودان إلى النتيجة ذاتها، أو لأنهما تقودان إلى نتيجتين لهما نفس القيمة،[٤٤]

---

[٤٢] - [الحج: ١٩ - ٢٢].

[٤٣] - انظر : إسماعيل بن عمر، ابن كثير،" تفسير القرآن العظيم" تحقيق محمد حسين شمس الدين، (دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٩٩٨) ج٥، ٣٥٧.

[٤٤] - انظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٠٩.

ومثل ذلك نجده عن حسان بن ثابت في قوله: من الوافر}

هَجَوتَ مُبارَكاً بَرّاً حَنيفاً أَمينَ اللَهِ شيمَتُهُ الوَفاءُ

فَمَن يَهجو رَسولَ اللَهِ مِنكُم وَيَمدَحُهُ وَيَنصُرُهُ سَواءُ [٤٥]

فموقف المشركين والمعاديين للرسول (ﷺ) لا يخرج عن حالتين فإما أن يظلوا على عداوتهم وهجائهم للرسول (ﷺ)، وإما أن يؤمنوا بالرسول (ﷺ) وينصروه وينقلب هجاؤهم مدحًا له، ولكن الأمر في الحالتين سواء، فذهب النقاد بخصوص هذا البيت " إنه من الهجاء المؤلم لأن الشاعر يقرر أنرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لا يضرّه هجاؤهم، ولا ينفعه مدحهم ونصرهم، فالهجاء والمدح سواء في جنب رسول الله إذا كان من المشركين، لأن الرسول عليه السّلام مدحه الله تعالى وحماه، فلا يضرّه هجاء المشركين له، ولا يزيد مدح المشركين له في منزلته" [٤٦]

١-٢-٢- إدماج الجزء في الكل أو حجة الاشتمال

يعتمد هذا النوع من الحجج على أن ما يُطبق على الكل يطبق بالضرورة على الجزء المندرج تحته، وهذا ما أشار إليه ليونال بلنجي حين قال:" وهذا النوع من الُحجج يقوم على مبدأ رياضي هو أن ما ينسحب على الكل ينسحب على الجزء من هذا الكل" [٤٧] وهذا يقودنا إلى أن قيمة هذا الجزء نابعة من قيمة الكل ذاته، فهذا الجزء خير ممثل للكل الذي هو أهم من هذا الجزء،" وتكون العلاقة في إدماج الجزء في الكل منظورًا إليها عادة من زاوية كمية فالكل يحتوي الجزء، وتبعًا لذلك فهو أهم منه وهو ما يجعل هذا الضرب من الحجاج في علاقة

---

[٤٥] - حسان بن ثابت ، الديوان، ٢٠.

[٤٦] - محمد شُراب، *"شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية"* (مؤسسة الرسالة: بيروت،٢٠٠٧،ط١) ج١، ٤٣٩.

[٤٧] - Lionel Bellenger, L'argumentatiom: principes et methods (1984)

نقلًا عن : سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢١٠.

بمواضع الكم أو معاني الكم" [٤٨]، ومثل هذه الحُجة نجدها عند حسان بن ثابت حين قال : {من الطويل}

كُنّا مُلوكَ الناسِ قَبلَ مُحَمَّدٍ قَدّما أَتى الإِسلامُ كانَ لَنا الفَضلُ
أَكرَمَنا اللَهُ الَّذي لَيسَ غَيرَهُ إِلَهٌ بِأَيامٍ مَضَت ما لَها شَكلُ
بِنَصرِ الإِلَهِ وَالنَبِيِّ وَدينِهِ وَأَكرَمَنا بِلسمِ مَضى ما لَهُ مِثلُ
أُولَئِكَ قَومي خَيرُ قَومٍ بِأَسرِهِم فَما عُدَّ مِن خَيرٍ فَقَومي لَهُ أَهلُ
يُرَبّونَ بِالمَعروفِ مَعروفَ مَن مَضى وَلَيسَ عَلى مَعروفِهِم أَبداً قُفلُ
إِذا اختَبَطوا لَم يُفحِشوا في نَدِيِّهِم وَلَيسَ عَلى سُؤالِهِم عِندَهُم بُخلُ
وَحامِلُهُم وافٍ بِكُلِّ حَمالَةٍ تَحَمَّلَ لا غُرمٌ عَلَيهِ وَلا خَذلُ
أُولَئِكَ قَومي بَيتُهُم في مَعَدِّهِم لَهُ ما ثَوى فينا الكَرامَةُ وَالبَذلُ
هُمُ حَكَموا قَبلَ اللِحاقِ أَوَّلَ قائِلٍ فَحُكمُهُمُ عَدلٌ وَقَولُهُمُ فَصلُ
إِذا حارَبوا أَو سالَموا لَم يُشَبِّهوا فَحَربُهُمُ خَوفٌ وَسِلمُهُمُ سَهلُ [٤٩]

فحسان بن ثابت في بداية قصيدته تحدث بلسان قومه الذي هو عضو مؤثر وفعال فيهم، فنجده يلجأ إلى استخدام (نا الفاعلين) فنسب الفعل له ولقومه، فقال: كنا، لنا، أكرمنا.. فأشار حسان إلى فضلهم ومكانتهم قبل الإسلام، وزيادة هذه المكانة بإيوائهم للرسول (ﷺ)، وأشار إلى اصطفائهم بنصرة النبي (ﷺ) والدفاع عن الدعوة الإسلامية،وأن هذا تكريم وفضل لا مثيل له، ثم أدار حسان الحديث عن قومه، فينسب الأفعال و الضمائر جميها إلى قومه، فقال يربون، اختبطوا، يفحشوا، حاملهم، معروفهم، جارهم، قائلهم، فحكمهم، قولهم، حاربوا، .... . فينسب حسان كل فضل وخير لقومه، فأشار إلى أنهم أهل لكل خير، وأن باب معروفهم مفتوح دائما لكل طارق، وإذا قصدهم طالب أو سائل لم يردوه بل كانوا أهلًا للمعروف، ومن يتحمل منهم غرمًا في دية يفي بهذا الحِمل، ووصفهم بالعدل في الحكم،

[٤٨] - حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ٣٣٠.
[٤٩] - حسان بن ثابت ، الديوان، ١٩٣.

والفضل في القوم، .... . وهكذا وُفِق حسان في وصف فضائل قومه وصفاتهم، وبهذا يكون حسان سحب على نفسه الحكم المطبق على قومه ، فنجده في باديء الأبيات ينسب ما جاء فيها إلى نفسه وقومه، ثم بعد بذلك أفرد الحديث عن فضائل قومه وشيمها، والتي تنسحب بالضرورة عليه، فحسان لسان قومه وخطيبهم، وعضو مؤثر وفعال في قومه، فقيمة قوم حسان ومكانة هؤلاء القوم وما نسب إليهم من فضائل تعبربالضرورة عن قيمة و حسان ومكانته فهو خير جزء يمثل هذا الكل العظيم.

١-٢-٢- الحجج القائمة على الاحتمال

وهذا النوع من الحجج الذي يقوم على العلاقات الرياضية يعتمد على خاصية الاحتمال، " فيؤسس على حظوظ المرء في تحقيق أمر ما أو إنجاز حدث معين أو اتخاذ موقف محدد وخلفيته واضحة، إنها الإيمان بأن المطلق نادر وأن الأمر لا يعدو أن يكون في أغلب الحالات محتملًا"،[٥٠] وعليه فإن هذه الُحجة تعتمد على احتمالية حدوث موقف معين أو أمر ما " من خلال ترجيح الغالب من القضايا المدرجة في الحجاج؛ إذ يترك مجال الترجيح في هذا الأمر للمتلقي كي يربط الواقعي بالمحتمل من تلك القضايا، وغاية ذلك استمالة النتائج الحجاجية المرجوة، على أساس أنها تعبير صريح منه عن قناعاته وأفكاره التي اعتمدها في مجال الترجيح تبعًا للسياق المحيط بالحجاج، وما يفرزه من قرائن مساعدة على الترجيح".[٥١]

و شاع هذا النوع من الحجج القائم على قاعدة الاحتمال في أساليب التهديد، فنجد عبدالله بن رواحة يقول مهددًا سفيان بن الحارث: {من الطويل}

وَعدنا أَبا سُفيانَ بَدراً فَلَم نَجِد ... لِميعادِه صدقاً وما كانَ وافِيا

فَفُلُّوا وافَيتَنا فَلَقيتَنا ... لَأُبتَ ذَميماً وافتَقَدتَ المَوالِيا [٥٢]

---

٥٠ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢١٣.

٥١ - حمدي منصور جودي، "بنية الخطاب الحجاجي في كليلة ودمنة لابن المقفع " (رسالة دكتوراه، منشورة)كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خضير - بسكرة، (٢٠١٥)١٩٦.

٥٢ - عبدالله بن رواحة،" الديوان ،١٣٨.

والبيتان يوضحان الطاقة الحجاجية المهمة التي توفرها الحجة القائمة على الاحتمال، ففي هذه الحُجة يقر كعب بن مالك بعدم وفاء أبى سفيان بالوعد، ثم استدرك ذلك مهددًا أبا سفيان ويقسم – معتمدًا على قاعدة الاحتمال - بأنه لو وافاه لجعله ذميمًا ليس له مولى ولا نصير.

واستخدم كعب بن مالك أيضًا هذه الحُجة القائمة على قاعدة الاحتمال في تهديد قبيلة دوس، فيقول: { من الوافر}

قَضَيْنا مِنْ تِهامَةَ كُلَّ رَيْبٍ وخَيبَرَ ثُمَّ أَجْمَمْنا السُّيوفا

نُخَيِّرُها وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قواطِعُهُنَّ دوساً أو ثَقيفَا (٥٣)

وتتمتع الابيات السابقة بطاقة حجاجية هائلة، فكعب بن مالك يهدد قبيلة دوس تهديدًا شديد اللهجة فيصرح بأنه لو أعطى الخيرة للسيوف، وكانت تمتلك القدرة على النطق لاختارت قبيلة دوس أو ثقيف، فهذه الصورة تحمل طاقة هائلة تفيد تعطش هذه السيوف للدفاع عن الدعوة الجديدة ضد من يعاديها' وهذه الحُجة تحمل بعض القرائن التي تساعدنا بشكل قطعى في ترجيح إحداهما عن الأخرى، وتمثلت هذه القرائن في إسناد الفعل لغير عاقل، فالسيوف ليست بعاقل لنخيرها، أو لتنطق، فاستطعنا الحكم باستحالة تحقيق هذا الأمر، ولكن هذا لا يعني عدم تحقيق الغاية المرجوة منه، فهذه الحُجة غير واقعية في معناها، ولكنها نجحت في هدفها، فأرسلت للعدو رسالة ضمنية مفادها أن الدارة سوف تقع قريبًا على دوس مثلما حدث مع ثقيف، فالرسالة الضمنية غير المباشرة أكثر تأثير وفاعلية في استهداف معنويات العدو، فساق كعب هذه الحجة لتكثيف الصورة واستثمارها في غرضه الأساسي وهو تصويب سهام التهديد في قلب العدو فيصيبه القلق والخوف، وهذا ما نجح كعب بن مالك في تحقيقه.

٢ - الُحجج المؤسسة على بنية الواقع :

إذا كانت الحجج شبه المنطقية تعتمد على المنطق فإن هذا النوع من الُحجج يقوم على الواقع بتجاربه وعلاقاته المتداخله والمتشابكة، " فالحجاج هنا ما عاد افتراضًا وتضمينًا بل أصبح تفسيرًا وتوضيحًا، تفسيرًا للأحداث والوقائع وتوضيحًا للعلاقات الرابطة بين عناصر

٥٣ - كعب بن مالك، الديوان، ٢٣٤.

الواقع وأشيائه" [٥٤] وتأتي قوة هذا النوع ونجاعته من الحجج في اتصاله واحتجاجه بالواقع، فعندما يقوم المحتج بتفسير الأشياء وتوضيحها تكون أكثر قبولًا وأقدر على الإقناع " فالمتكلم متى اعتمد هذا الصنف من الحُجج إنما يذهب في الواقع إلى أن الأطروحة التي يعرضها تبدو أكثر إقناعًا كلما اعتمدت أكثر على تفسير الوقائع والأحداث وأن الخطاب الحجاجي يكون أنجع وأقدر على الفعل في المتلقي والتأثير فيه كلما انغرست مراجعه في الواقع". [٥٥]

٢-١ - وجوه الاتصال التتابعي

٢-١-١- الحُجة السببية

وهذا النوع من الحجج يتخذ ثلاثة ضروب، فهو حجاج يقوم على الربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي، كأن يقول : اجتهد فنجح، وحجاج آخر يرمي إلى استخلاص سبب وقوع حدث معين، كأن يقول: نجح لأنه اجتهد، وحجاجاثث يرمي إلى التكهُن بما سينجز عن حدث ما من نتائج، كأن يقول: هو يجتهد فسينجح.[٥٦] " ومعنى هذا أن الربط السببي يكون المرور في الاتجاهين: من السبب إلى النتيجة و من النتيجة إلى السبب" [٥٧]

ويمكن أن يبنى على مبدأ التتابع حجة أخرى غير السببية وهي الحجة البراغماتية، " وللحجة البراغماتية تأثير مباشر في توجيه السلوك وعدت من أهم وسائل الحجاج. وإن مدار هذه الحجة كما قلنا تثمين حدث ما بذكر نتائجة فعلى هذا لا يكون المقصود من هذه الحُجة مجرد التثمين بل وتوجيه العمل أيضًا "،[٥٨] " فيمكن للحجاج البراغماتي من تقويم قرار أو حدث أو رأي باعتبار نتائجة الإيجابية أو السلبية" [٥٩]

وكعب بن مالك لجأ لتبرير الأحداث وتدعيم الموقف إلى مثل هذه الحُجج، فنجده يقول :

---

[٥٤] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢١٤.

[٥٥] - المرجع السابق، ٢١٤.

[٥٦] - انظر : حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ٣٣٢.

[٥٧] - المرجع السابق، ٣٣٣.

[٥٨] - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٥٠.

[٥٩] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢١٦.

{من الوافر}

ذُقَالَى مَعْشَراً ظَلَمُوا وَعَقُّوا ... وَكَانُوا بالعَداوةِ مُوصِدِينا

لَجُجُهُمْ إذَا نَهَضُوا إلَيْنا ... بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المتَسَرِّعِينا

تَرَانَا فِي فَضَافِضَ سَابِغَاتٍ ... كغُدْرانِ المَلاَ مُتَسَرْبِلِينَا

وَفِي أَيْمَانِنَا بِيضٌ خِفَافٌ ... بِهَا نَشْفِي مِرَاحَ الشَّاغِبِينا

بِبَابِ الخَنْدَقَينِ كأنَّ أُسْداً ... شَوَابِكُهُنَّ يَحْمِينَ العَرِينَا

فوارِسُنا إذا بَكَرُوا وَرَاحوا ... على الأَعْدَاءِ شُوساً مُخْلِصِينا

لَنَقْصُرَ أَحْمَدًا وَاللهَ حَتّى ... نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا

وَيَعْلَمَ أهلُ مكَّةَ حينَ سَارُوا ... وأحزابٌ أَتَوْا مُتَحَزِّبِينَا

بأنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وأنَّ اللهَ مَوْلَى المُؤْمِنِينَا

فإمَّا تَقْتُلُوا سَعْداً سَفَاهاً ... فإنَّ اللهَ خَيْرُ القَادِرِينا

سَيُدْخِلُهُ جِناناً طَيِّبَاتٍ ... تكونُ مُقَامَةً للصَّالِحِينا

كما قَدَرَتْكُمْ فَلاًّ شَرِيداً ... بغيظِكُمْ خَزَايَا خَائِبِينا

خَزَايَا لَمْ تَنَالُوا ثَمَّ خَيْراً ... وَكُنْتُمْ أَنْ تَكُونُوا نَادِمِينا

بِرِيحٍ عَاصِبٍ هَبَّتْ عَلَيْكُم ... فَكُنْتُمْ تَحْتَهَا مُتَكَمِّهِينَا [٦٠]

وكعب بن مالك في أبياته الأولى يصف واقعًا فنجده يسرد الأحداث في تتابع، فينعت المشركين بالظلم والعقوق والعداوة للإسلام، والمسلمون على استعداد للوقوف أمام هذا العتو والظلم برد ضربات العدو بضربات أسرع وأشد من ضرباتهم ، لابسين دروعهم المتسعة الرحيبة، وفي أيمانهم سيوفهم الفتاكة - التي يوقفون بها طيش الساعين للشر وعتوهم وشغبهم - وخيولهم التي تذهب باكرًا للقاء العدو في نشاط وحركة ناظر إليهم باستكبار واستعلاء ، فكعب بن مالك يقر هذا الواقع ويبرره بقول : لَنَقْصُرَ أَحْمَدًا وَاللهَ حَتّى نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا

[٦٠] - كعب بن مالك، الديوان، ٢٧٩:٢٨٠.

فاعتمد فاعتمد كعب هنا الُحجة السببية حين ألجأ كل هذه الأحداث لهدفه الأسمى وهو نصرة الرسول(ﷺ) والإقرار بأن الله لا شريك له، فانتقل كعب بنا من النتيجة للسبب أولًا ،فبعد أن سرد كعب الأحداث في تتابع وربطها بشكل سببي بما بعدها من أحداث، فجاءت هذه الأحداث جميعها لتسوقنا إلى نتيجة صاغها كعب بشكل براغماتي وهي إقرار ما أُلحق بالعدو من نتائج سلبية فألصق به الخزي والدمار والهلاك ، وبذلك يكون كعب قد انتقل بنا من السبب إلى النتيجة، فاستطاع كعب بعبقريته المعهوده أن يجمع ببراعة بين الُحجة السببية والُحجة البرغماتية، من خلال :

١- تجلت الُحجة السببية في ربط الُحجة الأولى التي تمثلت في عتو الكفار وظلمهم وترصدهم للمسلمين بالعداوة، واستعداد المسلمين لصد هذا العدوان بضربات أشد قسوة، وبين الُحجة الثانية والتي بلورت المبرر الرئيس لهذه الأحداث وهو الرغبة في نصرة الرسول(ﷺ) وإعلاء كلمة الحق.

٢- أما الُحجة البراغماتية تجلت في ربط كعب الحجة الثانية المتمثلة في نصرة الرسول (ﷺ) وإثبات قاعدة كلية من كليات الإسلام بأن الله واحد لا شريك له، بالنتيجة التي أوضحت الهيئة التي صار عليها المشركون، فهم في خزي وخوف ودمار وهلاك، فقد صور المسلمون أنفسهم بأنهم أشبه بالريح العاصف التي هبت على العدو فأهلكته ولم تبق له سوى العمى والدمار، فنجد بذلك توافر أهم ما تقوم عليه الُحجة البراغماتية، والتي تتأسس على :

أ - إقرار حدث باعتبار نتائجه السلبية، وهذا ما أوضحه كعب عندما وصف الهيئة التي صار عليها المشركون نتيجة تصدي المسلمين لهم دفاعًا عن الدعوة الإسلامية، وما نتج عن ذلك من دمار وخزي وهلاك وحرمان من كل خير.

ب - تأثيرها المباشر في السلوك وتوجيه العمل، وجاء هذا في البيت الأخير بشكل ضمني، فقول كعب: بِرِيحٍ عَاصِبٍ هَبَّتْ عَلَيْكُم فَكَّتُمْ تَحْتَهَا مُتَكَمِّهِينَا

فهذا يدل على السيطرة الكاملة على المشركين، وما هم فيه من خضوع، فمع الإقرار بثبات المسلمين وقوتهم من جهة وخضوع العدو واستسلامه بعد الهزيمة دعوة بوقف هذا العدوان والاستسلام التام بالدخول في الإسلام ، وقد حدث هذا التأثير المباشر فقد بدأ الكفار واليهود

يتوافدون للرسول بعد غزوة الخندق ليعلنوا إسلامهم، ومنهم من طلب إخفاء إسلامه خشية قومه،وكان من بينهم نعيم بن مسعود " الذي جاء إلى الرسول، وأخبره أنه أسلم ولا يعرف قومه بإسلامه". [٦١]

٢-١ -٢ – حُجة التبذير (الحُجة الغائية)

تعتبر الحُجة الغائية من حُجج الاتصال التتابعي " تتأسس هذه الحُجة على العلاقات القائمة بين الوسيلة والغاية، ففي مواقف حجاجية معينة يضطر المتكلم إلى استعمال ضرورات سياقية في شكل حجج للوصول إلى نتائج مقصودة، وبخاصة إذا علم هذا المتكلم أن المتلقي سيعارضه من البداية لتقُبل تلك النتائج، إلا أن عامل الحرص والتأكيد لدى المتكلم هو ما يجعل المتلقي يقتنع ويميل إلى الأخذ بتلك الحُجج لتقبل النتائج" [٦٢] ، ولهذه الحُجة قدرة فائقة في التأثير وبلوغ الغاية، ف "تضطلع الغائية التي يستبعدها العلم بدور أساسي في الأحداث الإنسانية. منها نستطيع أن نشتق حججًا كثيرة تؤسس كلها على الفكرة القائلة بأن قيمة الشيء تتصل بالغاية التي يكون لها وسيلة"[٦٣]

ومثل هذه الحُجج كثيرة عند شعراء الدعوة الإسلامية فكانت الغاية الأسمى عندهم الدفاع عن الرسول (ﷺ) و رد سهام الكفر وأعوانه، ووسيلتهم في ذلك هي السيف واللسان، وفي هذا الصدد نجد حسان بن ثابت يقول : {من الطويل}

مَنَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ حَلَّ وَسْطَنَا عَلَى أُفُقٍ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمِ

مَنَعْنَاهُ لَمَا حَلَّ بَيْنَ بُيُوتِنَا بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ عَادٍ وَظَالِمِ [٦٤]

فحسان بن ثابت يحدد غايتهم الأسمى وهي حماية الرسول (ﷺ) من كل باغٍ وظالم، وسيلتهم في ذلك هي سيوفهم، وكان حسان بن ثابت يردد هذه الأبيات عندما بعث إليه الرسول

---

[٦١] - محمود شيت خطاب،" *الرسول القائد*" (دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة: بغداد، ١٩٦٠، ط٢) ١٥٣.

[٦٢] - حمدي منصور جودي، "بنية الخطاب الحجاجي في كليلة ودمنة لابن المقفع، ٢٠٤.

[٦٣] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٢١.

[٦٤] - حسان بن ثابت،الديوان، ١٥١: ١٥٢.

ليجيب الزِّوقَان - شاعر بني تميم المُفلق- مؤكدًا من خلال ذلك أن الدفاع عن الرسول لن يقتصر على الرد عنه باللسان، ولكن بالسيف إن تطلب الأمر.

والأمر ذاته نجده عند كعب بن مالك، الذي رسخ للفكرة ذاتها، بالنهج ذاته، حيث أورد الغاية الكبرى المتمثلة في الرغبة في نيل الشهادة والفوز بنصرة الرسول (ﷺ)، ثم يتبع ذلك بالوسيلة وهي الدفاع عن محمد (ﷺ) باللسان وباليد، فقال: {من الطويل}

يَرى القَتْلَ مَنْحاً إنْ أَصَاب شهادةً ... من الله يرجُوها وفوزاً بأحمدِ

يَذُودُ ويحمي عَنْ نِمَارِ مُحَمَّدٍ ... وَيَدْفَعُ عَنْهُ باللّسَانِ وَبِاليَدِ

وَيَعْضُدُهُ من كُلّ أمرٍ يريبُهُ ... يَجُودُ بِنَفْسٍ دُونَ نَفْسِ محمَّدِ [٦٥]

وفي هذا النوع من الحُجج يمكن أن تتقدم الوسيلة عن الغاية، فيوضح المحتج ما تبع من وسائل، وما بذل من جهد، ثم يعقب ذلك الغاية التى من أجلها كان البذل وتسخير الوسائل، ومثل ذلك الأمر يجعل المتلقي في تشوق وترقب للوقوف على الغاية المرجوة وراء ذلك السعي كله، وقد استخدم حسان هذا العنصر التشويقي عندما قال : {من الطويل}

وَفَوا يومَ بدرٍ لِلرسولِ وَفَوقَهُم ... ظِلالُ المَنايا وَالسُيوفُ اللَوامِعُ

عَلَوهُم بِحَقٍّ وَكُلُّهُم مُطيعٌ لَهُ في كُلِّ أَمرٍ وَسامِعُ

فَما بَلَّلوا حَتّى تَوافَوا جَماعَةً ... وَلا يَقطَعُ الآجالَ إِلّا المَصارِعُ

لِأَنَّهُمُ يَرجونَ مِنهُ شَفاعَةً ... إِذا لَم يَكُن إِلّا النَبِيِّينَ شافِعُ [٦٦]

ففي هذه الأبيات يوضح حسان حال المسلمين عندما دعاهم الرسول (ﷺ) ليوم بدرٍ فأجابوه، ووفوه يوم بدرٍ والموت محيط بهم ومن فوقهم السيوف اللوامع؛ هدفهم الأسمى وراء ذلك هو نيل شفاعة الرسول(ﷺ).

٢-١-٣- حُجة الاتجاه

---

[٦٥] - كعب بن مالك، الديوان، ١٩٦.

[٦٦] - حسان بن ثابت،الديوان، ١٥٥.

وتنص هذه الُحجة على رفض أمر ما حتى وإن كان هذا الأمر في ذاته أمرًا مقبولًا أو جيدًا، لأنه سيكون الوسيلة التي تقودنا إلى غاية لا نريدها، وهي في حقيقة الأمر ُحجة مثيرة تجعلنا ندفع أمورًا كثيرة لا اعتراض عليها في ذاتها، ورفض أطروحات لا خلل فيها، ولكن مجرد تطبيقها والتسليم بها يقودنا إلى غاية لا ننشدها وإلى نتيجة نتحاشى حدوثها،[٦٧] " فتمثل أساسًا في التحذير من مغبة اتباع سياسة المراحل التنازلية"[٦٨]

ومثل هذه الُحجة نجدها عند كعب بن مالك عندما كان يجيب ابن العاص وضرار بن الخطاب في يوم أحد فيقول: {من البسيط}

فلا تَمنُّوا لِقَاحَ الحَرْبِ واقتَعِدُوا إنَّ أَخَا الحَرْبِ أَصْدَى للّوْنِ مَشْعُولُ

إنَّ لَكُم عِنْدَنا ضَرْباً تَرَاحُ لَهَا عُرْجُ الضِّبَاعِ لَهُ خَذْمٌ رَعَابِيلُ [٦٩]

فكعب بن مالك يطلب من المشركين المحاربين للإسلام ألا يتمنوا زيادة الحرب ونموها، والأمر في حقيقته ليس بالأمر السيء فالحرب للمشركين كانت بالأمر المحمود لديهم لأنه الوسيلة – في اعتقادهم – التي يطفون بها نور الإسلام، إذن زيادة الحرب ونموها بالأمر المحمود لهم وزيادتها ونموها يفسح لهم المجال لتحقيق هذه الغاية وتتيح لهم فرصة للنيل من المسلمين، ولكن كعبًا يطلب منهم ألا يتمنوا زيادة الحرب ونموها لأن ذلك ليس محمودَ العواقب، فيصبحون جثثًا هامدة ترقص الضباع على أشلائها فرحًا.

٢-٢ - وجوه الاتصال التواجدي

٢-٢-١ - حجة التعايش (ُحجة الذات)

تقوم هذه الُحجة على على أساس الربط بين الذات وصفاتها وأفعالها، " فتبنى هذه الُحجة انطلاقًا من علاقة تعايش بين الأشياء، وهي علاقة حصرها البعض في علاقة الذات بصفاتها أو الشخص بأفعاله"[٧٠]؛ انطلاقًا من أن أعمال الشخص تعبر عن جوهره ومحتواه " وفي

---

[٦٧] - انظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٢٥.

[٦٨] - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٥٠.

[٦٩] - كعب بن مالك، الديوان، ٢٥٥: ٢٥٦.

[٧٠] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٢٨.

المقابل يمكن أن يكون الشخص أو بالأحرى ما نعرفه عن الشخص هو الذي يفسر لنا ما غمض من أعماله فالشخص ههنا ينهض لدور السياق الذي يعن على تأويل العمل"[٧١] وعليه، فإن حُجة الذات تعمل على تفسير موقفٍ ما أو حدث معين باعتبار الذات الفاعلة، "فتبنى هذه الحُجة في جوهرها على اعتبار الصلة وثيقة بين أي شخص وأعماله وخاصة على مبدأ ثبات الشخصية بحيث إن قامت بفعل معين أو اتخذت موقفًا محددًا فلأنها عرفت بخصال معلومة منذ زمنٍ بعيد" [٧٢]

وتعايش الذات بأفعالها وصفاتها نجده عند حسان بن ثابت، في قوله: {من الوافر}

فَذَكُم بِالقَوافي مِن هَجانا ... وَضَربُ حينَ تَختَلِطُ الدِماءُ
أَلا أَبلِغ أَبا سُفيانَ عَنّي ... فَأَنتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَواءُ
بِأَنّ سُيوفَنا تَرَكَتكَ عَبداً ... وَعَبدَ الدّارِ سادَتُها الإِماءُ
هَجَوتَ مُحَمَّداً، فَأَجَبتُ عَنهُ ... وَعِندَ اللَّهِ في ذاكَ الجَزاءُ
أَتَهجُوهُ، وَلَستَ لَهُ بِكُفءٍ، ... فَشَرُّكُما لِخَيرِكُما الفِداءُ
هَجَوتَ مُبارَكاً، بَرّاً، حَنيفاً، ... أَمينَ اللَّهِ، شيمَتُهُ الوَفاءُ
فَمَن يَهجُو رَسولَ اللَّهِ مِنكُم ... وَيَمدَحُهُ، وَيَنصُرُهُ سَواءُ
فَإِنّ أَبي وَوالِدَهُ وَعِرضي ... لِعِرضِ مُحَمَّدٍ مِنكُم وِقاءُ
لِساني صارِمٌ لا عَيبَ فيهِ ... وَبَحري لا تُكَدِّرُهُ الدِلاءُ [٧٣]

تجلت ذات حسان بأفعالها وصفاتها على مدار القصيدة، فظهرت الذات الهجائية وذلك عندما اشتد هجاؤه لأبي سفيان فوصفه بالجبان الذليل الذي لا يرتقي ليكون من أكفاء الرسول ونظرائه، في قوله: (فَأَنتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَواءُ وَفَنا تَرَكَتكَ عَبداً لَستَ لَهُ بِكُفءٍ)؛ وظهرت أيضًا الذات المحاربة المقاتلة، وتجلت في كثير من المواضع التي أوضح فيها حسان قدرتهم

---

٧١ - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٥١.

٧٢ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه، ٢٢٩.

٧٣ - حسان بن ثابت،الديوان،٢٠: ٢١.

على قتال العدو ومحاربته والقدرة على النيل منه في أرض المعركة حين يشتد الطعن والقتال، في قوله : (ضَربُ حينَ تَختَلِطُ الدِماءُ بِأَنّ سُيوفَنا تَركَتْكَ عَبْداً)؛ وفي هذا الصدد تجلت الذات القوية المناضلة في سبيل الله، القادرة على التصدي، المضحية بكل غالٍ ونفيس من أجل نصرة النبي (ﷺ) في قوله: (فَأَجْبتُ عَنْه- فَإنّ أبي وَوالِدَه وَعِرْضي ** لِعِرْضِ مُحَمّدٍ مِنْكُم وِقَاءُ)؛ وفي السياق نفسه تجلت بوضوح الذات القيادية المتعالية على الكفر وأعوانه غير منشغلة بهجاء أو مدح، فلا وزن لهم ولا قيمة، في قوله: (فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُم ** وَيَمْدَحُه، وَيَنْصُرُه سَوَاءُ)؛ كما رأينا الذات المؤمنة حق الإيمان التي تهب كل ما تفعله من خير إلى الله منتظرة منه الجزاء، في قوله: (وَعِنْدَ اللَّهِ في ذاكَ الجَزَاءُ) وبين ذلك كله لم تختفِ ذات حسان الشاعرة صاحبة اللسان القاطع فكان يرد سهام الكفر بالكلمة كما ردها بالسيف، في قوله(فَإنَ حُكمِ بِالقَوافي مَن هَجانا- لِساني صارِمٌ لا عَيبَ فيهِ ** وَبَحريَ لا تُكَدِّرُه الدِلاءُ - فَأَجْبتُ عَنْه).

٢-٢ - ٢ - حجة السلطة

وفي هذا السياق تبرز حُجة أخرى، وهي واحدة من وجوه الاتصال التواجدي، فهذه الحُجة تكتسب قيمتها وقوتها من قيمة صاحبها وقوته، " فتتمثل في الاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف اعتمادًا على قيمة صاحبها" [٧٤]، وهي حُجة تغذوها هيبة المتكلم ونفوذه وسطوته، وتستعمل أعمال أشخاص أو مجموعة أشخاص أو أحكامهم حُجة على صحة أطروحة ما.[٧٥]

وحُجة السلطة ليست واحدة،بل اكتسبت صفة التنوع والتعدد " فقد تكون الإجماع أو الرأي العام أو العلماء أو الفلاسفة أو الكهنوت أو الأنبياء، وقد تكون هذه السلطة غير شخصية مثل الفيزياء أو العقيدة أو الدين أو الكتاب المقدس وقد يعمد في الحجاج بالسلطة إلى أشخاص

[٧٤] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه،٢٣٢.

[٧٥] - انظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج،٥٢.

معينين بأسمائهم، على أن تكون سلطة هؤلاء جميعًا معترف بها من قبل جمهور السامعين". (٧٦)

ولا يقوم الحجاج اعتمادًا على حُجة السلطة فقط، فيتعامل الحجاج معها على أنها حُجة مكملة أو مساعدة، فلا يعتمد عليها اعتمادًا رئيسًا،" فالعادة في الحجاج ألا تكون الحُجة بالسلطة الحُجة الوحيدة فيه وإنما تأتي هذه الحُجة مكملة لحجاج يكون غنيًا بحُجج أخرى غير حُجة السلطة". (٧٧)

ومثل هذه الحُجة وظفها حسان بن ثابت، عندما قال: {من البسيط}

الذَوالِبُ مِن فِهرٍ وَإِخوَتِهِم قَد بَيَّنوا سُنَّةً لِلنّاسِ تُتَّبَعُ
يَرضى بِها كُلُّ مَن كانَت سَريرَتُهُ تَقوى الإِلَهِ وَبِالأَمرِ الَّذي شَرَعوا
قَومٌ إِذا حارَبوا ضَروا عَدُوَّهُم أَو حاوَلوا النَفعَ في أَشياعِهِم نَفَعوا
سَجِيَّةٌ تِلكَ مِنهُم غَيرُ مُحدَثَةٍ إِنَّ الخَلائِقَ فاعلَم شَرُّها البِدَعُ (٧٨)

فحسان بن ثابت يعتمد ويُقر الإسلام، استنادًا لقيمة الرسول (ﷺ) الذي جاء بها، فعمد حسان إلى الإشارة لجده الأكبر فهر، فبذلك يوضح شرف قبيلة الرسول (ﷺ)، وزيادة هذا الشرف باختيار الرسول (ﷺ) من بينهم ليكون نبي الأمة، فحجة السلطة هنا نابعة من شرف قبيلة الرسول (ﷺ) وهي سجية غير محدثة، فقيمة الرسول (ﷺ) ومكانته وشرف قبيلته، تقتضي أن يكون مُطاعًا مُتبعًا.

٢-٢ - ٣ - حجة الرمز

وهذه الحُجة وجه آخر للاتصال التواجدي، واندرجت هذه الحُجة ضمن الاتصال التواجدي لا التتابعي وذلك لأن " قيمة الرمز ودلالته تستمدان مما يوجد من ترابط واتصال تزامني بين الرامز والمرموز إليه فالعلاقة بينها علاقة مشاركة". (٧٩)

---

٧٦ - حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ٣٣٥.

٧٧ - المرجع السابق، ٣٣٥.

٧٨ - حسان بن ثابت ، ١٥٢.

٧٩ - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج،٥٣.

وهذه الرموز ليست ثابتة بل تتغير بتغير المجتمعات والثقافات، لذلك نجد مؤسس الخطاب الحجاجي يعي عادةً الفضاء الذي يتحرك فيه خطابه، ويعرف ضرورة الرموز المعبرة عن انتماء متلقيه الثقافي والاجتماعي فيوظفها بطريقة ذكية لائقة تمكن من الإقناع والحمل على الإذعان، على أن الرمز يتخذ أحيانًا كثيرة بُعدًا ذاتيًا خالصًا يصنعه المتكلم في شعره ويمنحه مكانة خطيرة في خطابة. (٨٠)

فالشاعر يستخدم الرمز ليضفي التأثير والإقناع إلى حُجته، فلجأ كعب بن مالك إلى الرمز حين قال: {من البسيط}

كَم مِن كَرِيمٍ يَضُجُّ الكَلبُ مِئزَرُهُ ثُمَّ يَفِرُّ إِذا أَلقَتهُ الحَجَرا(٨١)

فالكلب هنا يرمز إلى الجبن وكثرة الضجيج، فهو يرمي إلى ابن الزبعري الذي يعوي بهجائه على الرسول (ﷺ)، ثم ينخرس هذا العواء عندما يرد عليه حسان بهجائه اللاذع، وإن نبحه بالهجاء ناتج عن خوف شديد وليس قوة وشجاعة كما يدعي ابن الزبعري، وهذا الرمز استقاه كعب بن مالك من البيئة العربية، فالكلب معروف بالجبن، وهذا ما ذكره الجاحظ في ذكره لصفات الكلب، فقال: "والكلب جبان وفيه جرأة و لؤم، ومن فرط الجبن أنه يفزع من كل شيء و ينبحه".(٨٢)

٣ - الحُجج المؤسسة لبنية الواقع

وهذا الصنف الثالث من الحُجج تربطه صلة وثيقة بالواقع ولكنه لا يتأسس عليه ولا ينبني على بنيته، وإنما هو الذي يؤسس هذا الواقع و يبنيه أو على الأقل يكمله ويظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه أو يوضح ما لم يتوقع من هذه العلاقات وما لم ينتظر من صلات بين عناصره ومكوناته، ويندرج تحت الاستدلال المؤسس لبنية الواقع تقنيتين، هما: تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة و الاستدلال بواسطة التمثيل.(٨٣)

---

٨٠ - انظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه،٢٣٦: ٢٣٧.

٨١ - حسان بن ثابت،الديوان، ١٣٦.

٨٢ - عمرو بن بحر،الجاحظ،" الحيوان" (دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠٣،ط٢) ج١، ١٨٦.

٨٣ - انظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه،٢٤٢.

٣ - ١ - تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة

٣ - ١ - ١ - المثل

تأتي المحاجة بواسطة المثل لإثبات صحة القضية التي هي موضع الخلاف، وعليه " فالمحاجة بواسطة المثل تقتضي وجود بعض الخلاف في شأن القاعدة الخاصة التي جيء بالمثل لدعمها وتكريسها"[٨٤]، "ويتم الاستدلال أحيانًا كثيرة بناء على المثال المفرد المعزول الذي يعتمد لتعميم حكم ما أو فكرة معينة فيتأسس الواقع على ظاهرة مفردة يتم توسيعها بحيث تصبح حالة عامة لا مجرد حالة خاصة تم الانطلاق منها وبناء الواقع عليها".[٨٥]

فالمحتج يبني واقعًا عامًا بواسطة حالة خاصة، ليثبتها ويجعلها قاعدة، "والواقع أن جُل الشعر العربي القديم ينزع بوضوح إلى اتخاذ الحالة الخاصة مطية لتثبيت الآراء وتدعيم الأفكار بتعميمها وتوسيعها، فتغدو تجربة الشاعر الاتية منطلقًا للحكمة وإذا بالحكمة تدعم بدورها التجربة الخاصة وتبررها فتغدو العلاقة الحجاجية ذات اتجاهين: الخاص يبرر العام و العام يثبت الخاص ويؤكده".[٨٦]

ومثل ذلك نجده عند حسان بن ثابت فيقول : {من الكامل}

يا حارِ مَن يَغدر بِذِمَّة جارِهِ ... مِنكُم فَإِن مُحَمَّداً لَم يَغدر

إِن تَغدروا فَالغَدرُ مِنكُم شيمَةٌ ... وَالغَدرُ يَنبُتُ في أُصولِ السَخبرِ

وَأَمانَةُ المُرِّيِّ حَيثُ لَقيتَهُ ... مِثلُ الزُجاجَةِ صَدعُها لَم يُجبَرِ[٨٧]

فحسان يذكر في لهجة لا تخلو من الهجاء اللاذع لحارث بن عوف فهم في غدرهم يشبهون نبات السخبر، "فشجر السخبر إذا انتهى استرخى رأسه لم يبق على انتصابه، فيقول أنتم لا تثبتون على وفاء كهذا السخبر الذي لا يثبت على حال بينا يرى منتصبًا عاد مسترخيًا

---

[٨٤] - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٥٤.

[٨٥] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه،٢٤٣.

[٨٦] - المرجع السابق، ٢٤٤.

[٨٧] - حسان بن ثابت،الديوان، ١٢٧.

غير منتصب"[٨٨]، فيؤكد أن الغدر متأصل فيهم ومن شيمهم، وهذا أمر لن يجبر ولن ينصلح فهو كالزجاج يستحيل جبر صدعها. وما يهمنا في هذه الأبيات انفتاح تجربة الشاعر الخاصة على التجربة العامة، فالشاعر وإن تحدث في البداية عن غدر حارث بن عوف وإن هذا الغدر صفة قبيحة ملازمة لصاحبها لا تفارق سيرته طوال حياته، ولكن سرعان من ينفتح الشاعر على العام المطلق فيجري القول مجرى الحكمة المتحررة من قيود الزمان والمكان، ليؤسس حسان قاعدة - يخرج فيها من إطار الخاص للعام - فيجعل الغدر في شخصية الغادر كالكسر في الزجاج كلاهما لا يجبر. فنجد أن تجربة حسان الذاتية كانت منطلقاً للحكمة، وهذا الأمر ليس بالعارض في شعر حسان بل هو أمر متأصل في شعره فقد شهد له الرسول (ﷺ) بالحكمة، "أخرج أبو الفرج في الأغاني عن أبي وجزة السعدي قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ليس شعر حسان بن ثابت، ولا كعب بن مالك، ولا عبد الله ابن رواحة شعراً، ولكنه حكمة"[٨٩] وبهذا نُخلص بأن هذه الحركة الانتقالية من الخاص إلى العام المطلق، يصحبه تأسيس قاعدة وتأكيد فكرة أو رأي معين، فالشاعر يلجأ لهذا النوع من الُحجج لتدعيم أفكاره و جعلها كالحقائق القاطعة.

---

[٨٨] - عبدالرحمن البرقوقي، "شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري"، ٢١١.

[٨٩] - جلال الدين السيوطي،" *شرح شواهد المغني*" (لجنة التراث العربي:بيروت، د.ط، ١٩٦٦)ج١، ٣٣٥.

٣ - ١ - ٢ - الاستشهاد (الشاهد)

يقوم الاستشهاد أو (الشاهد) بمهمة التوضيح، قاصدًا من ذلك المساهمة في إبراز الحُجة وتقويتها، فهو تبعًا لهذا الوظيفة التي يضطلع بها يسهم بشكل ملموس في إثراء الخطاب الحجاجي.

وحُجة المثل إذا كانت الغاية منها تأسيس القاعدة فإن حُجة الاستشهاد من شأنها أن تقوي درجة التصديق بقاعدة ما معلومة؛ وذلك بتقديم حالات خاصة توضح القول ذا الطابع العام، وتقوي حضور هذا القول في الذهن، وعلى هذا فإن الاستشهاد يؤتي به للتوضيح في حين أن المثل يؤتى به للبرهنة ولتأسيس القاعدة، وبهذا يكون المثل عادة سابقًا للقاعدة في حين يكون الاستشهاد لاحقًا قصد تقوية حضور الحُجة وقصد جعل القاعدة المجردة ملموسة حسية.[٩٠]

وبهذا يكون المثل أسبق من الاستشهاد، ففي العملية الحجاجية يأتي المثل أولًا لتبنى عليه القاعدة، ثم يعقب ذلك الاستشهاد ليقوي حضورهذه القاعدة، ويزيدها وضوحًا، فالاستشهاد يحول الصورة الجامدة إلى صورة حية نابضة، وأسس شعراء عهد النبوة حجة الاستشهاد على حُجة المثل بغرض تقديم حُجة قاطعة للخصم، فنجد عبدالله بن رواحة يقول: {من الطويل }

وَيَندَمَ قَومٌ لَم يُطيعوا مُحَمَّداً ... عَلى أَمرِهِم وَأَيُّ حينَ تَنَدُّمِ

فَأَبلِغ أَبا سُفيانَ إِمّا لَقيتَهُ ... لَئِن أَنتَ لَم تُخلِص سُجوداً وَتُسلِمِ

فَأَبشِر بِخِزيٍ في الحَياةِ مُعَجَّلٍ ... وَسِربالِ قارٍ خالِداً في جَهَنَّمِ [٩١]

فعبدالله بن رواحة استعان بحُجة المثل في تأسيس قاعدة أساسيه في بيته الأول مفادها إلحاق الندم لمن لم يتبع ويطع الرسول (ﷺ)، ثم لجأ إلى حُجة الاستشهاد لتقوية حضور حُجة المثل في الذهن وزيادة درجة تصديقها، فقام بتحويل قاعدته الأساسية إلى صورة حية نابضة وذلك عندما أشار إلى أبي سفيان أنه في حالة عدم اتباعه للرسول (ﷺ) سوف يلحقه الندم، سواءأكان في الدنيا بإلحاق الخزي والعار به أو في الآخرة بخلوده في النار.

---

[٩٠] - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ٥٥.

[٩١] - عبدالله بن رواحة، الديوان،١٣١.

ولجأ حسان أيضًا إلى استعمال الحُجتين - تأسيس حُجة الاستشهاد على حُجة المثل- في الرد على ابن الزبعري حين قال : {من الرمل }

أَبلِغا حسّانَ عَنّى آيةً ... فَقَريضُ الشعرِ يشفى ذا الغُلَل

كَم تَرى بِالجَرِّ من جُمجُمةٍ ... وَأَكُفٍّ قَد أُتِرّت وَرِجِل

وَسَرابيلَ حِسانٍ سُرِّبت ... عَن كُماةٍ أُهلِكوا في المُنتَزَل

كَم قَتَلنا مِن كَريمٍ سَيِّدٍ ... ماجِدِ الحَدَّينِ مِقدامٍ بَطَل

لَيتَ أَشياخي بِبَدرٍ شَهِدوا ... جَزَعَ الخزرجِ مِن وَقعِ الأَسَل[٩٢]

حينما حدث انتصار عسكري لقريش في غزوة أحد، قال ابن الزبعري هذه القصيدة يفتخر فيها بانتصارهم على المسلمين وقتلهم للأشراف من المسلمين، ، وأخذ هم بالثأر لما حدث لهم في غزوة بدر من هزيمة ساحقة، وأخذ يهجو الملسمين بهجائه لحسان فقام حسان بالرد على ابن الزبعري معارضًا قصيدته قائلًا: {من الرمل }

ذَهَبت بِابنِ الزِبَعرى وَقعَةٌ ... كانَ مِنّا الفَضلُ فيها لَو عَدَل

وَلَقَد نِلتُم وَنِلنا مِنكُم ... وَكَذاكَ الحَربُ أَحياناً دُوَل

إِذ شَدَدنا شَدَّةً صادِقَةً ... فاجَأناكُم إِلى سَفحِ الجَبَل

إِذ تُولّونَ عَلى أَعقابِكُم ... هَرباً في الشَعبِ أَشباهَ الرَسَل

فَضَعُ الخَطِّيَّ في أَكتافِكُم ... حَيثُ هَوى عَلَلاً بَعدَ نَهَل

فَسَدَحنا في مَقامٍ واحِدٍ ... مِنكُم سَبعينَ غَيرَ المُنتَحَل

وَأَسَرنا مِنكُم أَعدادَهُم ... فَانصَرَفتُم مِثلَ إِفلاتِ الحَجَل

وَطَوَينا يَومَ بَدرٍ بِالتُقى ... طاعَةَ اللَهِ وَتَصديقَ الرُسُل

وَتَرَكنا في قُرَيشٍ عَورَةً ... يَومَ بَدرٍ وَأَحاديثَ مَثَل [٩٣]

---

[٩٢] - يحيى الحبوري، *"شعر عبدالله بن الزبعري"* (مؤسسة الرسالة: بيروت، ط٢، ١٩٨١)٤١: ٤٢.

[٩٣] - حسان بن ثابت،الديوان، ١٨١: ١٨٢.

فحسان في هذه القصيده يحاول أن ينقض ادعاء خصمه بالنصر والغلبة، فلجأ إلى حُجة المثل والتى تجلت في تأسيس قاعدة مفادها أن الأعداء نالوا منهم كما نال المسلمون منهم، وأن الحرب دول، ثم بنى على ذلك حجة الاستشهاد حين ذهب إلى توضيح فكرته المحورية، فحسان بعد أن تحدث عن أول معركة أُحد وكيف أبلى المسلمون بلاءً حسنًا في بداية المعركة قفز الشاعر إلى غزوة بدرالتي انتصر فيها المسلمين انتصارًا عظيمًا مؤكدًا بذكره لغزوة بدر وانتصارهم فيها قاعدته الأساسية بأن الحرب دول، فكما حدثت الغلبة لقريش في أحد كانت قد حدثت من قبل للمسليمن.

وتتمثل حجة الاستشهاد أيضًا "بالاستشهاد بالنصوص ذات القيمة السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمات القُواد الخالدين في نظر الجماعة المقصودة، لأن قيمة الشخص المعتف بها سلفًا من قبل السامعين يمكن اعتبارها مقدمة حجاجية مهمة توظف في تحقيق الكثير من النتائج"[٩٤] ومن ذلك قول حسان: {من الوافر}

وَجبريلٌ أَمينُ اللَه فينا وَروحُ القُدسِ لَيسَ لَهُ كِفاءُ
وَقالَ اللَهُ قَد أَرسَلتُ عَبداً يَقولُ الحَقَّ إِن نَفَعَ البَلاءُ
شَهِدتُ بِهِ فَقَومُوا صَدَّقوهُ فَقُلتُم ما نَقومُ وَلا نَشاءُ [٩٥]

والشاهد في هذه الأبيات هو جبريل، فهذا الشاهد نابع من سلطة دينية، وفيه إشارة لما يحمله من الوحي، ثم ينتقل الشاعر إلى مرسل الوحي - الله – فيستشهد الشاعر بقوله معلنًا صراحة نسبة القول إلى الخالق عندما قال : (وَقالَ اللَهُ قَد أَرسَلتُ عَبداً)، وفي قوله: (شَهِدتُ بِهِ فَقَومُوا صَدَّقوهُ)، وهكذا تتكئ الحُجة الموجوده في النص اتكاءً كاملًا على عناصر دينية، تستمد قوتها من نصوص ذات سلطة ربانية؛ في محاولة لاستثمار قوة هذه المقولات في التأثير في المخاطب ومحاولة إقناعه بفكرة الخطاب.[٩٦]

---

[٩٤] - محمد سالم الأمين الطلبة، *الحجاج في البلاغة المعاصرة*" (دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ط١، ٢٠٠٨)١٣١.

[٩٥] - حسان بن ثابت،الديوان، ٢٠.

[٩٦] - انظر: جمال فضل فرحان، "الحجاج في شعر حسان بن ثابت مقاربة تداولية، ١٤: ١٥.

٣ - ١ - ٣- النموذج

ويعد النموذج هو آخر الحُجج المتعلقة بالحالات الخاصة، وهو ما يعرف أيضًا بالقدوة والنموذج في تعريفيه الدقيق هو مثال نقترحه لأنفسنا أو نقترح اتباعه، وبهذا فهو يمثل معيارًا حتى وإن كان يعتبر حالة خاصة، فهو يقدم هذا الكائن بوصفه نموذج، وغالبًا ما يكون هذا النموذج متعاليًا في كل شيء، أو على الأقل في بعض سلوكياته الحقيقية أو المفترضة.[٩٧] وكما أشار بيرلمان Perelman "أن أفضل أماكن لتواجد هذه الحُجة يكون في مجال التوجيه والقيادة، لأن عندما يتعلق الأمر بالقيادة فإن سلوكًا خاصًا لا يؤسس أو يذيع قاعدة عامة فحسب بل يمكنه أن يحرض على فعل يستلهم منه " [٩٨]، وبهذا يتضح دور هذه الحُجة في توجيه السلوك، دفع الشخص للامتثال لفعل معين أو لشخص محدد كما قال بيرلمان Perelman :" يجب أن يكون النموذج على قدر كافٍ من الهيبة" [٩٩]، لذلك يجب على المُحتج في العملية الحجاجية أن يجيد اختيار نماذجه وأن تكون على القدر الذي يجلعها نموذجًا للاقتداء.

وكان الشعراء يرون في الرسول (ﷺ) النموذج الكامل والقدوة الحسنة، فكان خير من يقتدى به،فضرب الرسول مثلًا لكمال الصفات البشرية،فكان الرسول (ﷺ) يمتلك من المقومات والصفات الأخلاقية التى تجعل الاقتناع بأمر نبوته أمرًا مطروحًا، ولن نذهب بعيدًا، فهرقل عظيم الروم استدل بأخلاق النبي (ﷺ) على صدق نبوته[١٠٠].

فأخذ الشعراءُ الرسولَ (ﷺ)مثالاً يُحتذى به، فنجد حسان بن ثابت يقول: {من الطويل}

---

[٩٧] - انظر: فيليب بروتون و جيل جوتييه، *تاريخ نظريات الحجاج* تر، محمد صالح الغامدي" (مركز النشر العلمي: جدة، ط١، ٢٠١١) ٥٤.

98 - Perelman (Ch.) et tyteca (L. Olbrechts), Traité de l'Argumentation: La nouvelle rhétorique نقلًا عن : سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه،٢٤٥.

99 - Perelman (Ch.) et tyteca (L. Olbrechts), Traité de l'Argumentation: La nouvelle rhétorique نقلًا عن : سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه،٢٤٥.

[١٠٠] - انظر : محمد بن إسماعيل، البخاري،" صحيح البخاري" (دار طوق النجاة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ).ج١، باب بدء الوحي، الحديث السابع.

أغرُّ عليهِ للنُّبوَّةِ خاتَمٌ ... من اللَّهِ مَشْهودٌ يلُوحُ ويُشْهَدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِه، ... إذا قالَ في الخَمْسِ المُؤذِّنُ أشْهَدُ
وشقَّ لهُ من اسمِه ليجلَّهُ ، ... فذو العرشِ محمودٌ، وهذا محمدُ
نَبيٌّ أتانا بَعْدَ يأسٍ وفَتْرةٍ ... منَ الرسلِ، والأوثانِ في الأرضِ تعبدُ
فأمسى سِراجاً مُستَنيراً وهادِياً، ... يلُوحُ كما لاحَ الصَّقيلُ المُهنَّدُ
وأنذرنا ناراً، وبشَّرَ جنةً ... وعلمنا الإسلامَ فاللهَ نحمدُ
وأنتَ إلهَ الخلقِ ربي وخالقي، ... بذلكَ ما عمرتُ في الناسِ أشهدُ[١٠١]

وكذلك وضع شعراء الرسول نموذجًا للمسلم الحق، الذي يطيع الرسول (ﷺ) ويمتثل لأوامره ويضحي لأجله بكل غالٍ ونفيس، وجعلوا هذه الصوره ماثلة أمامهم لتكون النموذج السليم والقدوة الحسنة التي يقتدي بها كل مُسلم، فنجد كعب بن مالك يقول : {من الطويل}

يَرى القتْلَ مَنْحاً إنْ أَصَاب شهادةً ... من الله يرجُوهَا وفوزاً بأحمدِ
يَذُودُ ويحمي عَنْ نَمارِ مُحَمَّدٍ ... وَيَدْفَعُ عَنْهُ باللّسانِ وبالَيدِ
وَيَنْصُرُهُ من كُلّ أمرٍ يريبُهُ ... يَجُودُ بِنَفْسٍ دُونَ نَفْسِ محمَّدِ
يُصدِّقُ بالأنباءِ بالغَيْبِ مُخْلصاً ... يُرِيدُ بِذَاكَ الفَوْزَ والعِزَّ في غَدِ[١٠٢]

وعلى النقيض الآخر نجد حُجة عكس النموذج ، وإذا كانت حُجة النموذج تقدم نموذجًا يحمل دعوة صريحًا للاقتداء به، فإن حُجة عكس النموذج تحمل دعوة صريحة للانفصال عن الشخص الذى يمثل عكس النموذج، " والشاعر في القديم ينطق بلسان قومه: يخلد مآثرهم وأيامهم ويذيع خصالًا وينشر قيمًا فيما يبعد أخرى ويقصيها ويعمل جاهدًا على تغييبها لا من الشعر وحده بل من الواقع أيضًا"[١٠٣] ، لذلك نجد الشعراء هم أحوج الناس لمثل هذه الحُجج، فيستخدم الشاعر حُجة النموذج في مدح خِصال شخص والإشادة بنبل أخلاقه، مما يحمل

[١٠١] - حسان بن ثابت،الديوان، ٥٤.
[١٠٢] - كعب بن مالك، الديوان، ١٩٦.
[١٠٣] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه،٢٤٧.

الناس على الاقتداء به، ومن ثم يستخدم حُجة عكس النموذج في هجائه ليحمل الناس على نبذ هذه الشخصية والانفصال عنها. وقد أشار حسان إلى حُجة عكس النموذج عندما هجا أبا جهل، مبينًا أنه شخص مشؤوم مضلل أمره غير رشيد هجين النسب، وإنه أخذ كل من تبعه إلى الغي والضلال، فكان مصير هذا الجمع الذي يقوده أبو لهب لعنة الرحمن، وتحمل هذه الأبيات التي تتضمن حُجة عكس النموذج دعوة صريحة لرفض هذا الدعي اللعين- أبو لهب – فبهجاء حسان يحمل الجماهير على نبذه والتنزه عن اتباعه، فقال حسان في هجاء أبي لهب : {من الطويل}

لَقَد لَعَنَ الرَحمَنُ جَمعاً يَقودُهُم ... دَعِيُّ بَني شَجعٍ لِحَربِ مُحَمَّدِ
مشؤمٌ لَعينٌ كانَ قِدماً مُبَغَّضاً ... يُبَيِّنُ فيهِ اللُؤمَ مَن كانَ يَهتَدي
فَدَلّاهُم في الغَيِّ حَتّى تَهافَتوا ... وَكانَ مُضِلّاً أَمرُهُ غَيرَ مُرشِدِ[١٠٤]

وفي أعقاب الاحتجاج بالنموذج والنموذج المضاد ظهر أسلوب حجاجي آخر وهو المقارنة، " فإذا قامت المقارنة بين طرفين أو أطراف تنتمي إلى نظام واحد يسهل بيان الفوارق ورصد الاختلافات "[١٠٥] فعندما نضع نصب عين المتلقي النموذج والنموذج المضاد في خطاب حجاجي واحد، يسهل على المتلقي إدراك الفروق بينها، ويدرك بديهيًا ما يتوجب عليه فعله، من الا قتداء بأحدهم، ونبذ الآخر فمجيء الحُجتين معًا يجعل كلًا منهم مصدر قوة واتكاء للآخر، وظهرت هذه الحُجة بشكل جَلي عند شعراء الرسول، في محاولة منهم لمقارنة الحق بالباطل، فنجد حسان يقول : {من الطويل}

لَقَد خابَ قَومٌ غابَ عَنهُم نَبِيُّهُم ... وَقَد سُرَّ مَن يَسري إِلَيهِم وَيَغتَدي
تَرَحَّلَ عَن قَومٍ فَضَلَّت عُقولُهُم ... وَحَلَّ عَلى قَومٍ بِنورٍ مُجَدَّدِ
هَداهُم بِهِ بَعدَ الضَلالَةِ رَبُّهُم ... وَأَرشَدَهُم مَن يَتبَعِ الحَقَّ يُرشُدِ

[١٠٤] - حسان بن ثابت،الديوان، ٩٣.

[١٠٥] - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه،٢٤٨.

وَلَهُ يَبتَوي ضُلّالُ قَومٍ تَسَفَّهوا عَمىً وَهُداةٌ يَهتَدونَ بِمُهتَدِ[١٠٦]

فحسان لجأ للجمع بين حُجة النموذج و عكس النموذج، فالتزم حسان منهج الترتيب في ذكر حُججه، فبدأ بذكر النموذج المضاد أولًا وهم كفار قريش الذين جاء لهم الرسول (ﷺ) بالهدى بعد الضلال فرفضوه وتمسكوا بجهلهم فكانوا عُميا عن الحق وظلوا في ضلالهم وجهلهم، ثم ذكر النموذج وهم أهل المدينة التي هاجر إليهم الرسول (ﷺ) ، وحل عليهم بنور الهداية، فاتبعوا رشده، فبعد أن أسس حسان لحجته مقارنًا بين قومٍ رفضوا الهدى وتمسكوا بالضلال و قومٍ استجابوا للهدى واتبعوا الحق، اختتم أبياته متسائلًا عن إمكانية تساوي الفريقين، تاركًا المتلقي للإجابة عن تساؤله، ومن ثم اختيار نموذج للاقتداء، ونبذ النموذج المضاد.

٣ - ٢ – الاستدلال بواسطة التمثيل

يلتصق هذا النوع بالشعر التصاقاً جلّيا، باعتبار جوهره قائم على التخييل، " فالاستدلال بواسطة التمثيل يعني تشكيل بنية واقعية تسمح بإيجاد أو إثبات حقيقة عن طريق تشابه في العلاقات، فهو احتجاج لأمر معين عن طريق علاقة الشبه التي تربط بأمر آخر فندخل بذلك مجال التشبيه والاستعارة، أو ما عالجه الفلاسفة تحت عنوان القياس الشعري"[١٠٧]

والقياس ينبني على مقدمتين صغرى وكبرى يقودان إلى استنتاج، وهذا هو القياس الصريح، ولكن القياس الشعري، عادةً ما يتبع الشكل الضمني الذي يكتفي بالاستنتاج فقط، وذلك بالأمر الطبيعي لأن الشكل الصريح للقياس يهدم الطاقة الإيحائية للتشبية أو الاستعارة.[١٠٨]

وهو طريقة حجاجية تعلو قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك؛ وذلك لأنه يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة أبدًا، ومن ثم اعتبر عاملًا أساسيًا من عمليات

---

١٠٦ - حسان بن ثابت،الديوان، ٥٩.

١٠٧ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر االعربي بنيته وأساليبه،٢٥٢.

١٠٨ - انظر: المرجع السابق، ٢٥٣.

الإبداع ويستعمل في الحجاج، فهو ينطلق من تجربة ما بهدف إفهام فكرة أو العمل على أن تكون الفكرة مقبولة وذلك بنقلها من مجال إلى مجال آخر مغاير.[١٠٩]

وللتمثيل طاقة إيحائية يدعم بها طاقة الحُجة ويقوي من قدرتها الإقناعية، وذلك لأنه " يرتكز على استدعاء صورة تحكي أحداثًا من أجل نقل أفكار مرجعية ذات قيمة رمزية، فضلًا عن اتجاهه نحو مخيلة الإبداع وتجاوزه للغة وحدود الواقع، ويفهم عن طريق تحريك الذهن"[١١٠]

ومثل هذه الحُجة نجدها عند حسان بن ثابت في قوله: {من البسيط}

أَلا تَ َرونَ بِأَني قَ د ظُلِ متُ إِذا كانَ الزَبِعرى لَ نعلي ثابِتٍ خَطَرا
كَم مِن كَرِيمٍ يَضُ الكَلبُ مِئزَرَه ثَفِقٌ إِذا أَلقَ متَ ـه ُ الحَجَرا [١١١]

يتكئ حسان في هجائه لابن الزبعري على حُجة التمثيل؛ حيث شبه المهجو بالكلب، ليضرب مثا لًا حيًا على الضجيج وعلو الصوت بالهجاء رغم الجبن والخسة، فيشبه ابن الزبعري بهجائه للرسول، بالكلب كثير العواء والضجيج الذي يفر إذا ألقمته حجرًا، فكذلك ابن الزبعري ينخرس هجاؤه إذا رد عليه حسان وهاجاه، فبهذا التمثيل استطاع حسان أن يقوي حضور الصورة في الذهن، وكان ذلك أنجع في توصيل المعنى المراد.

وكذلك استعمل حسان الحُجة ذاتها في موضع آخر فنجده يقول : {من الكامل}

يا حارِ مَن يَغدِر بِ ذِمَّة جارِه مِنكُم فَ إِن مُحَمَّداً لَ م يَغدِر
إِن تَ غدِروا فَ الغَدرُ مِنكُم شيمَةٌ وَالغَدرُ يَنبُ تُ في أُصولِ السَخَبرِ
وَأَمانَةُ المُرِّيِّ حيثُ لَقَ يتَ ـه ُ مِثلُ الزُجاجَةِ صَدعُها لَ م يُ جبَرِ [١١٢]

---

١٠٩ - انظر: عبدالسلام عشير، "عندما نتواصل نغيرمقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج"،(أفريقيا الشرق: المغرب، د.ط، د.ت)٩٧.

١١٠ - المرجع السابق، ٩٨.

١١١ - حسان بن ثابت،الديوان، ١٣٦.

١١٢ - حسان بن ثابت،الديوان، ١٢٧

فحسان في هذه الأبيات اعتمد على حُجة التمثيل، والتي جاءت بشكل مركب، فاتكأ على تمثيلٍ يُدعم كل منهم الآخر، فجاء التمثيل الأول؛ وفيه يشبه حسان غدرالحارث بن عوف بنبات السخبر،" "فشجر السخبر إذا انتهى استرخى رأسه لم يبق على انتصابه، فيقول أنتم لا تثبتون على وفا ء كهذا السخبر الذي لا يثبت على حال بينا يرى منتصبًا عاد مسترخيًا غير منتصب"[١١٣]، ثم جاء تمثيل ثانٍ ليدعم التمثيل الأول ويقوى حضوره، فيشبه حسان أمانة الحارث بن عوف بالزجاجة المتصدعة التي يستحيل إصلاحها أو جبرها، فكذلك المهجو وما حمل من صفات دنيئة وغدر فضلًا عن عدم تحليه بالأمانه، يستحيل إصلاحه أو تخليه عن هذه الصفات لأنها متأصلة فيه ومن شيمه، فاستحالة تخليه عنها وإصلاحه يشبة استحالة إصلاح الزجاج المتصدع وجبره، فأعطت هذه الحُجة المركبة للمعنى قوة حضور وكان أنجع في تحريك الذهن.

ثانيًا: الطرائق الانفصالية

إذا كانت الطرائق الاتصالية تسعى إلى التقريب بين العناصر و تتيح فرصة لإقامة ضرب من التضامن بين هذه العناصر بهدف هيكلتها في بنية واضحة أو عمل فكري واحد تحقيقًا للهدف الأسمى وهو الحمل على الإذعان، فإن الطرائق الانفصالية تسعى جاهدةً إلى فك أي تشابك و إفساد الصلةالموجودة بين العناصر تحقيقًا للهدف ذاته وهو الحمل على الإذعان والتسليم بقضية معينة ولكنها اقتضت الفصل بين عناصرها حتى يحدث ذلك الإذعان.

فيقصد بالطرائق الانفصالية " التقنيات التي تستخدم بهدف تفكيك اللحمة الموجودة بين عناصر تشكل كلًا لا يتجزأ، وغالبًا ما تستخدم هذه التقنيات في تفكيك الأبنية الحجاجية التي يخشى المتكلم على نجاح حجاجه منها، ومرد هذا الفصل هو الزوج الظاهر/ الواقع أو الحقيقة" [١١٤]، بمعنى أن الأشياء والمعطيات يمكن أن يكون لها حدان ظاهر زائف وواقع حقيقي ،والحد الذي يوافق الظاهر، هو ما يخطر بالذهن ويدركه الفكر منذ الوهلة الأولى فهو

---

[١١٣] - عبدالرحمن البرقوقي، "شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ٢١١.

[١١٤] - عبد العالي قادا، "*بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية*"(دار كنوز المعرفة:عمان، ط١، ٢٠١٦)١٧٥.

المعطى الراهن المباشر، أما الحد الذي يوافق الواقع لا يمكن تمييزه إلا في حالة مقارنته بالحد الظاهر وهذا لا يحدث إلا في حالة الفصل، سعيًا لإيقاظ فكرنا من غفلته وانخداعه.[١١٥]

وإذا كان الاتصال يحدث بين العناصر المتباينة، فإن الانفصال يحدث بين العناصر التي بينها وحدة واحدة، وهذا ما أكده عبدالله صولة حين قال:" والانفصال بين العناصر في الحجاج يقتضي وجود وحدة بينها ومفهوم واحد لها فهي عناصر عائدة إلى اسم واحد يعينها، وإنما وقع الفصل بينها لأسباب دعا إليها الحجاج"[١١٦] واعتبر بيرلمان Perelman وتيتكاه tyteka أن " أنجع الكلام في الحجاج ما جاء على قدر المقام؛ بحيث يتطابق موضوع الخطاب وأسلوبه فيتجنب حصول الفصل المذكور "[١١٧]

ومن أمثلة هذه التقنية نجدها عند حسان بن ثابت، حين قال في هجائه لعبدالله بن الزبعري:

{من الكامل}

زَعَمِ ابنُ نـابِغـ ـَةَ اللَئيمُ بِأَنَّنا ... لا نَجتَلي الأَحسابَ دونَ مُحَمَّدِ

أَموالَنـا وَنُفوسُنـا مِن دونِـهِ ... مَن يَصطَخِيراً يُـذَبَ وَيُحَمَّدِ

فَتيانُ صِدقٍ كَاللُيوثِ سَماعِرٌ ... مَن يَلقَهُم يَومَ الهِياجِ يُعَرِّدِ

قَومٌ ابنِ نـابِغَةِ اللِئـامِ أَذِلَّـةٌ ... لا يُقبَلونَ عَلى صَفيرِ المُوعِدِ [١١٨]

وحسان في هذه الأبيات يوضح أن ابن النابغة -عبدالله ابن الزبعري - زعم بأنهم لا يفدون محمدًا بأحسابهم، ولكن الأمر ليس كذلك فحسان يقول : إننا نفديه بأموالنا ونفوسنا وبكل غالٍ ونفيس، فتجلت هنا تقنية الفصل حيث ظهر حدان هنا : الحد الأول - وهو حد ظاهر - تجلى في ظن ابن الزبعري بأن أتباع محمد ليسوا على استعداد بالتضحية من أجله بأحسابهم، وإيمانهم به إذن يكون إيمانًا شكليًا لا قيمة له، وحد ثانٍ - وهو خفي عن ابن الزبعري- بأن أتباع محمد على استعداد للتضحية من أجله بكل ما لديهم من حسب ونسب وأموال، فإيمانهم

---

[١١٥] - انظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج،٦١: ٦٢.

[١١٦] - المرجع السابق، ٦١.

[١١٧] - علي الشبعان، "*الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل*"(دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ط١، ٢٠١٠)١٨٥.

[١١٨] - حسان بن ثابت،الديوان، ٩٤ .

متأصل فيهم، فسعى حسان إلى تجلية الحد الثاني - الخفي – فعمد إلى تقنية الفصل والتي من أعظم مهامها هو إفساد الصلة وإحداث القطيعة بين الحدين، الحد الظاهر والحد الخفي بغرض تجلية الحد الخفي وإعلائه وإضمار الحد الظاهر .

الخاتمة :

هكذا أوضحت هذه الورقة البحثية اعتماد شعراء الرسول في دفاعهم عن الدعوة الإسلامية على الحجاج بمختلف تقنياته، فمن خلال موهبتهم الشعرية وجودة أدائهم و وتوظيفهم للتقنيات الحجاجية ، استطاعوا توجيه ذهن المتلقي وتغير آرائه ومعتقداته، وإقناعه بالوقائع والأحداث، فكان خطابهم الحجاجي أقدر على الفعل في المتلقي والتأثير فيه. فخَلُصت هذه الورقة البحثية إلى أن شعر الدفاع عن الدعوة الإسلامي هو شعر حجاجي زاخر بالسمات التواصلية والحجاجية، وأوضحت الدور الهام الذي لعبة الحجاج في الحياة العقائدية والسياسية، فكان خير سلاح استخدمه شعراء الرسول في معاركهم الشعرية ضد أعدائهم، لأن المعركة بين الإسلام والكفر لم تكن معركة حربية فقط، ولم يعد السلاح وحده قادر على ردع العدو، فنهض الشعر ليقوم بدوره في الدفاع عن الدعوة الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المراجع العربية :

-القرآن الكريم

-إبراهيم مدكور، "المعجم الفلسفي" (القاهرة: مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، د.ط، ١٩٨٣).

-أبو بكر الرازي،" مختار الصحاح" تحقيق: يوسف الشيخ محمد(بيروت: المكتبة العصرية- الدار النموذجية، ط٥، ١٩٩٩).

-أبو بكر العزاوي، " اللغة والحجاج"(الدار البيضاء: دار العمدة، ط١، ٢٠٠٦).

-إسماعيل بن عمر، ابن كثير،" تفسير القرآن العظيم" تحقيق محمد حسين شمس الدين، (دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٩٩٨) .

-جمال فضل فرحان، "الحجاج في شعر حسان بن ثابت مقاربة تداولية " (العراق: المجلات الأكاديمية العراقية، عدد١١، مجلد٣٨، ٢٠١٩) ١- ٢٢.

-حبيب أعراب،" الحجاج و الاستدلال الحجاجي: عناصر استقصاء نظري"،(عالم الفكر، عدد ١، مجلد ٣٠، يوليو – سبتمبر، ٢٠٠١)٩٧: ١٣٨.

-حسان بن ثابت،" الديوان دراسة وتحقيق: عبدأ مهنا (لبنان: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٩٤).

-حمادي صمود،" أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" (المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية: تونس، د.ط، د.ت).

-حمدي منصور جودي، "بنية الخطاب الحجاجي في كليلة ودمنة لابن المقفع " (رسالة دكتوراه، منشورة، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خضير - بسكرة،٢٠١٥.

-سامية الدريدي، " الحجاج في الشعر العربي بنبته وأساليبه"(الأردن: عالم الكتب الحديث،ط٢ ، ٢٠١١).

-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي : العصر الإسلامي ، (القاهرة : دار المعارف، ط٧، ١٩٦٣)

-طارق محمد، " الحجاج في خطب الحجاج : خطبته في أهل العراق" رسالة ماجستير منشورة (جامعة النيلين، كلية الدراسات العليا، ٢٠١٩).

-طه عبدالرحمن، "اللسان والميزان أو التكوثر العقلي"(الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ، ط١، ١٩٩٨).

-طه عبدالرحمن،"في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" (الدار البيضاء ،المركز الثقافي العربي ، ط١، ٢٠٠٧).

-عبد العالي قادا، "بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية"(دار كنوز المعرفة: عمان، ط١، ٢٠١٦).

-عبد النبي ذاكر، " الحجاج: مفهومه و مجالاته"، (مجلة فصول، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد ٢، مجلد ٤٠، اكتوبر - ديسمبر ، ٢٠١١)٧: ١٠ .

-عبدالرحمن البرقوقي، "شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري" (المكتبة التجارية الكبرى: مصر، د.ط، ١٩٢٩) .

-عبدالسلام عشير، "عندما نتواصل نغيرمقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج"،(أفريقيا الشرق: المغرب، د.ط، د.ت).

-عبدالله بن رواحة،" الديوان دراسة وتحقيق: وليد قصاب" (الرياض: دار العلوم، ط١، ١٩٨١).

-عبدالله صولة، " الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية" (بيروت: دار الفارابي، ط٢، ٢٠٠٧).

-علي الشبعان، " الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل"(دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ط١، ٢٠١٠).

-عمرو بن بحر،الجاحظ،" الحيوان" (دار الكتب العلمية: بيروت، ٢٠٠٣،ط٢) .

-كعب بن مالك،" الديوان دراسة وتحقيق: سامي مكي العناني(بغداد: مكتبة النهضة، ط١، ١٩٦٦).

-مجد الدين محمد، الفيروز أبادي،" القاموس المحيط " تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة إشراف محمد نعيم العرقوسي،(بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٨، ٢٠٠٥).

-محمد العبد، "النص والخطاب والاتصال" (القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، د.ط، ٢٠١٤).
-محمد بن إسماعيل، البخاري،" صحيح البخاري" (دار طوق النجاة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ).
-محمد بن مكرم، ابن منظور، " لسان العرب" (بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٩٠).
-محمد سالم الأمين الطلبة، "الحجاج في البلاغة المعاصرة" (دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت، ط١، ٢٠٠٨).
-محمد شُرَاب،" شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية" (مؤسسة الرسالة: بيروت، ط١ ،٢٠٠٧) .
-محمد طروس، "النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية"، (الدار البيضاء : دار الناشر للثقافة، ط١، ٢٠٠٥).
-محمد علي التهانوي، "كشاف الاصطلاحات والفنون والعلوم" تحقيق: رفيق العجم وعلي دحروج، (لبنان: مكتبة لبنان ناشرون،ط١ ، ج١،١٩٩٦).
-محمود شيت خطاب، الرسول القائد (دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة: بغداد، ١٩٦٠، ط٢) .
-يحيى الحبوري، "شعر عبدالله بن الزبعري" (مؤسسة الرسالة: بيروت، ط٢، ١٩٨١).
-يوسف بن عبدالله، ابن عبد البر،" الاستيعاب في معرفة الأصحاب "، تحقيق على محمد البجاوي(بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩٢)

ثانيًا: المراجع المترجمة

-أندريه لالاند،" موسوعة لالاند الفلسفية" تعريب خليل أحمد خليل،(بيروت: منشورات عويدات، ط٢، ٢٠٠١).
-فيليب بروتون و جيل جوتييه، *تاريخ نظريات الحجاج* تر، محمد صالح الغامدي" (مركز النشر العلمي: جدة، ط١، ٢٠١١).

ثالثًا: المراجع الأجنبية :

Lionel Bellenger, L'argumentatiom: principes et methods (1984)

Perelman (Ch.) et tyteca (L. Olbrechts), Traité de l'Argumentation: La nouvelle rhétorique.